

محمد احمد المهدى

تاريخه . سيرته . حياته

تأليف

محمد بن احمد
الملقب بالراه الشنقيطي

جميع الحقوق محفوظة للناس

مكتبة الفتاه
لصاحبها: على يوسف سليمان
شارع الصناديق بميدان الزهر
مصر

محمد احمد المهدى

تاريخه . سيرته . حياته

تأليف

محمد بن احمد
الملقب بالذاه الشنقيطى

جميع الحقوق محفوظة للناشر

مكتبة الفتاه

لصاحبها: على يوسف سليمان
شايع الصناديق بميدان الزمر
بمصر



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، خالق الخلق جيلا بعد جيل المفضل لبني آدم على كثير من خلقه بالعقل والتنزيل ، الذي جعل الأواخر يعلمون علم ما علمه الأوائل بكتابة تاريخ كل رجل جليل ، ولولا كتابة الأوائل للتاريخ ما علم الأواخر عن تاريخهم أقل قليل ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي فضله الله على سائر الرسل وجعله خاتمهم وأخبره بتاريخهم في كتابه الذي أنزل عليه وفيه ومنه الشيء الكثير وفضل أمته على سائر الأمم كما جاء في التنزيل .

وبعد : فيقول العبد الفقير إلى الله الراجي منه أن يدلّعه في الدارين أمناه محمد بن أحمد الملقب بالداه الشنمية على إقليمها ، فإن لطول إقامتي بالسودان قد علمت عن محمد أحمد المهدي بن عبد الله وأنصاه الشيء الكثير ، ولم أر من كتب في تاريخه كتابا مستقلا وإنما أطاعت على نبد يضعها بعض المؤرخين غير مشفوية للمقصود ؛ فأردت أن أضجع كتابا في تاريخه يشمل على أكثر المهمات ، ليس بالطويل الممل ولا بالقصير المخل ، والله المستعان على كل الحالات وعليه الاعتماد في المهمات ، وله الحول والقوة في الماضي والحال وما هو آت فنسأله حسن الخاتمة عند المات .

ميلاد محمد أحمد المهدي وصفته وأخذه للعلم والتصوف

وتجواله مع مريديه في البلد

ولد محمد أحمد المهدي سنة ألف ومائتين وخمسين من هجرة سيدنا محمد ﷺ في شهر الله رجب في سبع وعشرين منه الموافق ١٢ أغسطس سنة ١٨٤٤ ميلادية في جزيرة الخنادق ، ويقال لهالب الواقعة جنوب مدينة العرض قاعدة إقليم دنقلا ، واسم والده عبد الله بن فحل واسم والدته جاره ، وله أخوان محمد وحامد وأخت اسمها آمنة ، وفي سنة ميلاده أجدبت بلادهم بسبب انخفاض النيل فهاجر أبواة وإخوته وهو رضيع لم يبلغ ثلاثة شهور ، واستوطنوا قرية تسمى بكررى شمال أم درمان بنحو خمسة عشر ميلا ولم يحل عليه الحول حتى توفي أبواة إلى رحمة الله عز وجل فكان في كفالة أخويه وأخته فكفلوه أحسن كفالة وربوه أحسن تربية ، ولما بلغ السابعة من عمره ذهب إلى الفقيه الهاشمي ، وكان مشهوراً في تلك الجهة بتعليم القرآن لأولاد المسلمين بغير أجرة ، وهو يسكن في شرق النيل بقرية بحاذية لقرية كبرى فقرأ عليه القرآن إلى أن حفظه ، ثم ذهب إلى رجل من أهالي شنقيط بالخرطوم يسمى الشيخ محمود ، وكان عالماً جليلاً وكان يعلم الناس الفقه وغيره فتعلم عليه ثم ذهب إلى الشيخ محمد الخير وهو رجل عالم جليل من علماء السودان يسكن قرب بربر فتعلم عليه ، وفي سنة ١٢٧٧ هجرية عاد إلى وطنه بعد ما حفظ القرآن وتفقه في الدين ، ثم أراد أن يأخذ الطريقة الصوفية على شيخ من شيوخ الصوفية في بلده ، فاختار لذلك الشيخ محمد شريف نور الدائم حفيد

الشيخ أحمد الطيب أحد خلفاء الشيخ محمد السمان المدني نسبة إلى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، فأخذ عليه العهد ، وكان بعد ما أخذ عليه العهد يحل شيخه غاية الإجلال ويخدمه بلا توان ولا ملال ، وكان شيخه ينظر إليه نظر حب وإعجاب ، وكان شيخه كثيراً ما يصادفه قائماً يصلي في محل لا تراه العيون وهو يبكي بكاء الشكلى ، فإذا رآه على هذه الحالة أعجب به غاية الإعجاب ، وقال فيه شيخه هذا : لقد جاءني في عام ١٢٧٧ زرع بموضع على جبل السلطان في شاطئ البحر :

يروم الصراط المستقيم على يدي	فبايعته عهداً على النهى والأمر
فقام على نهج الهداية مخلصاً على يدي	وقد لازم الأذكار في السر والظهر
أقام لدينا خادماً كل ليلة مخلصاً على يدي	تجل على أهل التواضع في السر والظهر
كطبخ وعجن واحتطاب وغيره	ويعطى عطاء من لا يخاف من الفقر
وكم صام كم صلى وكم قام وكم تلى	من الله لا زالت مدامعه تجري
وكم بوضوء الليل كبر للضحى	وكم ختم القرآن في سنة الوتر
لذلك سقى من منهل القوم شربة	بها كان محبوباً لدى الناس في البر

ثم إن شيخه رآه أهلاً للدعوة إلى الله فألبسه خلعة المشيخة وأذن له بإعطاء العمود وإرشاد الناس إلى الحق وتسليك المريدين الطريقة ، ثم جدداً الطريقة بعد ذلك بمدة على الشيخ الذي يقطن بالحلاويين بالجزيرة ، وكان عمر الشيخ القرشى إذ ذاك نحو تسعين سنة ثم بدا للمهدي أن يذهب إلى ناحية هادئة ليتفرغ للعبادة وتطهير النفس ورياضتها لتسلك الطريق المستقيم ، فوقع اختياره على جزيرة أبا في بحر النيل الأبيض ، وكانت هذه الجزيرة كثيرة

الأشجار والنبات ، فكلهم أهلهم وكانوا يسمعون كلامه ويحبونه غاية المحبة ومعجبون به غاية الإعجاب ، فأخبرهم بقصده وأنه يريد منهم أن يرتحلوا معه رحل نقلة إلى هذه الجزيرة لتكون له ولهم دار إقامة ، وسرعان ما لبوا دعوته فرحل هو وهم إلى هذه الجزيرة سنة ١٢٧٧ هجرية .

ثم بنى مسجدا للصلاة ومعدنا لتدريس العلم ، فتسامع به الناس وهرع إليه سكان الجزيرة من كنانة وغيرهم من قبائل العرب من كل مكان وتدفقوا يأخذون عنه العهد بكثرة ويسمعون إلى وعظه وإرشاده عقب الصلاة فيحدثهم عن تعاليم الإسلام وسموها ويكلمهم بعباراته القوية التي تقع في نفوس سامعيها أشد من وقع النبل في الشيء اللين ، ويحدثهم على التمسك بالدين والعمل به والجهاد في سبيل الله لوجهه والانصراف عن ملاذ الدنيا وشهواتها الفانية .

وفي أثناء إقامته بجزيرة أبا أراد أن ينقطع عن هذا العالم ، فحفر غارا في الأرض في هذه الجزيرة وانقطع فيه للعبادة ، وكان إذا خرج منه يلتفت حوله أتباعه ومحبيه في زى الدراويش ، ومعنى دراويش : درى عن حقيقة الله وشريعته فاعترف لله بالوحدانية وللرسول بالرسالة ، لباسهم الجبة المرقومة والطاقية ذات القرون والمنطقة والسبحة الطويلة ، فكان يحول بهم ما بين دنقلا وسنار ، وما بين سنار وكردفان داعيا للانضمام إليه وأخذ العهد عليه ، وبدأ السودان يشهد نوعا جديدا من المواكب ، فالطبول تضرب بين يدي المهدي فيملاؤها دويها التلال والسهول ، والأعلام ترفرف وجموع الدراويش تسير يشق تهليلها وتكبيرها عنان السماء يتقدمهم محمد أحمد المهدي وهو رجل

طويل القامة أسمر اللون عريض المنكبين مفتول الساعدين ضخمة الجثة عظيم الهامة واسع الجبهة أفن الأنف واسع الفم والعينين مستدير اللحية خفيف العارضين أسنانه كاللؤلؤ وفي فمكة الاعلا فلجة بها كان يكنى ، فحبوه يقولون يا أبا فلجة ، فكان غاية في الجمال ، وكان دائم الابتسام متواضع يقرب المساكين ويجلس على الارض ويرضى بالقليل من القوت ولا يتشهى ولكن كان يأكل ما وجد ، وكان ميله إلى الردىء من المأكول أكثر ، وكان يلبس ملابس مرقعة ، ويتعمم على قانسوة من نوع ما يتعمم به أهل مكة ، ولعمته عذبة يرسلها على منكبها الايسر ويضع على منكبها رداء ويتمنطق بمنطقة ، ويلبس نعلا يشبه نعال أهل مكة يقال لها السعدية ، ويتوكأ على عصا طويلة مصنوعة من النحاس مكسوة بجلد أو عصا من النورع المعروف باسم الخيزران وكان دائم الإطعام .

ثم ذهب المهدي مع أتباعه إلى الشيخ القرشي لزيارته ثم سافر من عنده لجزيرة أبا ثم توجه منها إلى كردفان فصادف إقبالا عظيما من الناس ، ولا سيما الذين عاهدوه على نصرته ، ثم نزل بالابيض وهي الآن عاصمة كردفان وفيها نحو مائة ألف نسمة وفيها سبع مساجد ؛ تقام فيها الجمعة والمؤلف إمام أحدها ، وفيها مدارس للبنين والبنات وفيها أسواق عامرة ، ولها وارد كبير من المواشي والصمغ والسمسم وحب البطمخ وغير ذلك ؛ فنزل ضيفا على إلياس باشا ولد أم بربر من قبيلة الجعليين وبيته الآن مجاور للمسجد الذي يصل في فيه المؤلف وفي ذات يوم سمع ضوضاء الطبول وآلة الطرب ورأى من الناس الدهشة والاستغراب ، فقال : ما هذا ؟ ففيل له إن فلاناً النحاسى وهو نصرانى

أمرني أقتل بالأبيض في فتح المهدي لها . بعد ذلك يريد أن يتزوج بغلام اسمه أحمد قرغه وهو مشهور بقرف أكثر من اسمه . وهو يبرى الاصل ومسلم وإطلاق الزواج على هذا المنكر من باب الشبهة لانه استعمل فيه فرج كفرج الزوجة . وهذا أعظم منكر شوهد في الدنيا .

وبلغني أن أحمد هذا اجتمع بعد ذلك بالمهدي بالخرطوم وتاب على يده وعاش بعد المهدي . وكان يبيع السعوط وهو عشبة التبناك يدق ناعما ويجعل في الفم في بعض البلاد وبعضها في الانف . وفي السودان الغالب في بلدهم استعماله في الفم . وللهاء فيه خلاف . فبعضهم يحرمه وبعضهم يقول بكرأهيته والمؤانف يقول بأنه شبهة . والشبهة ما تجاذبه أدلة الحل والتحريم . وكان يواظب على الصلوات الخمسة في المسجد . ويصوم الختيس والإثنين فلم يصدق المهدي بالخبر . وأخيراً دعاه اثنين من أتباعه فذهبوا إلى محل هذا المنكر الذي تكاد السموات تنفطرن منه وتذشق الارض وتخرج الجبال هدأ . فوجدوا المدعويين والموائد ممدودة والطبول تضرب وجيء بشخص يلبس عمامة وطيلساناً من أهل الفساق يتزني بربى العالم فأجرى صيغة العمد . فرجع الرجلان وأخبرا المهدي بالحاصل .

ولما تحقق المهدي صدق الخبر ذهب بنفسه ومعه بعض أنصاره . وعندما شاع هذا المنكر وليس من رأى كمن سمع لم يتمالك أن مجرد سيفه ورفعته ليضرب به عنق النخالي وقرغه ولاكل من قابله من أولئك الفسقة الضالين فسكهم أنصاء وحماوه إلى منزله فاجتمع معه جماعة من المشايخ وذهبوا إلى الحكرمة يشكون إليها أمر هذا المنكر فقربلوا بالإهانة والازدراء وقال

لهم مأمور الضبطية : الدنيا حرية . فرأى المهدي أنه لا وراء هذا من الفساد والتجاهر بالذنكرات إذا لم يمنع فاعلمها ينزل عقاب من الله ويعمم الفاعل وغيره قال الله عز وجل :

« واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب » .

وقال الشاعر :

إذا شاع في الأرض فساد ومنكر وليس بها ناه مطاع وزاجر
فقر ولا تقيم يبلدة يموت بها عرف وتحبي المناكر
فإن عقاب الذنب حين خلفائه يخص وإن يظهر يعم المجاور

ثم رجع المهدي إلى جزيرة أبا وكان شيخه الشيخ القرشي قد توفي فجمع نحو ثلاثمائة رجل من أتباعه وبنى على شيخه قبة وختن أنجاله وكان بناءه لهذه القبة سنة ١٢٩٥ وفي زمن بنائه للقبة جاءه الخليفة عبد الله وهو رجل أبيض مربوع القامة وهو الذي تولى الأمر بعده بوصاية منه واسم والده محمد وملقب بثور شين ومعناه ثور قبيح . وهو لقب مدح لأن أخواله ماشيتهم البقر ويعدون الثور له الجرأة والقوة . واسم والدته أم نعيم قبيلة يقال لها التعايشة واسم جده علي وهو من المغرب فاستوطن بلاد التعايشة وتزوج فيهم فرزق محمد المذكور وأحمد المشهور بلقب دني وهو والد محمد الذي صار بعد ذلك أميراً في المهديّة .

وقد ولد الخليفة عبد الله بجهة الكلركة جنوب دار فور بالقرب من

شيمكان وأخواله التعيشة أهل بادية يسكنون في هذه الجهة ويعيشون
بألبان الماشية وجل ماشيتهم البقر ولذا يسمون بالبقارة . وكل قبيلة
في السودان غالب ماشيتها البقر يقال لها البقارة وبعد عودة المهدي من
الحلاويين أخذ يدعو الناس للبيعة على الطاعة فباعه خلق كثير من قبائل
الأعراب النازلين حول جزيرة أبا منهم قبيلة كنانة ودقم ومن أهم قبيلة دقيم
الخليفة على حلو وكان أول عمده بعلم القرآن الشريف . وكان المهدي يستخلفه
على محله بجزيرة أبا كلها سافر إلى أي مكان . وهاتان القبلتان معروفتان
بالشجاعة وقوة البأس .

واستمر المهدي يدعو الناس سرّاً من سنة ١٩٧٧ هجرية . وكانت
مقصورة على أخصائه والمتقدين فيه وبعض مشايخ الطرق . وسرعان
ما تكاثرت أتباعه فاجتمع له دعاة في كل مكان ما بين زعيم قبيلة وتاجر كبير
وموظف حكومة . ثم انتشر اسمه في ربوع السودان وصارت السفن
والإبل والحيل والحمر تأتي بالوفود الكثيرة إليه من كل صوب لتباعه
وتجاهد معه إلى سنة ١٢٩٨ هجرية . ثم أرسل مذكوراً إلى جميع
الذين علموه بالطاعة يحضهم على الهجرة إليه والجهاد معه . وأرسل
نسخاً من هذا المذنبور إلى بعض العلماء بالخرطوم منهم الشيخ الأمين
الضرير رئيس العلماء بالسودان فأطلع الشيخ الأمين الحَكَمدار محمد زروق
باشا على المذنبور حالا انتدب الحَكَمدار أبا السعود بك العقاد ومعه جماعة
الدناثة يسكنون بالخرطوم يبلغون المهدي أوامر الحَكَمدار وأنه يدعو إلى
الحضور عنده فسافروا على الباخرة الفاشر . ولما وصلوا إلى جزيرة أبا
قابلهم كل ما فيها بالتكبير . وكان المهدي يتعبد في الغار فأخبرهم بهم فجله

للى منزله ثم أذن لهم بالمقابلة فدخلوا عليه والسيوف مسأولة على رؤوسهم من أنصار المهدي فقال له أبو السعود بك ان الحكمدار يدعوك الى الحضور عنده فقال له المهدي لست بذهاب اليه ولا حاجة لي فيه فقال له أبو السعود ياسيدي أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فقبض المهدي على سيفه كان على لحذه الأيسر . وقال أنا ولي الأمر الآن . فقاموا من عنده ورجعوا وركبوا على باخرتهم ورجعوا الى الخرطوم .

أول موقعة بين الحكومة والمهدي بجزيرة أبا

وكان ذلك في أوائل شهر رمضان سنة ١٢٩٨ هجرية

ولما عاد الرسل الى الخرطوم وقصروا على الحكمدار محمد رموف باشا مدار بينهم وبين المهدي وأخبروه برفضه الذهاب اليه وبقوله انه هو ولي الأمر عول على ارسال قوة عسكرية تقبض عليه وتأتي به أسيراً وان هو خالفها أردته قتيلاً . فانتدب بلوكين من المشاة المنتظمين وعددهم نحو مائتين ومعهم مدفع من الطراز الجبل مع ما يحماونه من البنادق وعين ضابطين وهما لبراهيم على وعلى عزم وسير معهما أبا السعود العقاد فسافروا على باخرتين ووصلوا الى جزيرة أبا قبل غروب الشمس . وقد رأى المهدي وأنصاره الباخرتين وعلماهما عن حقيقة الجيش الذي فيهما ولما ألقى الباخرتان مراسيهما بالجزيرة نزل الجنود الى الشاطئ وأخذوا في الأهبة والاستعداد للتحرف على محل المهدي وكان السير متعذراً بسبب الوحل . وبما هم سائرون والليل متعكر وقد مضى أكثر من نصفه والمريق في غاية الصعوبة واذا بالمهدي وأنصاره ينتفضون عليهم من كل مكان رافعين أصواتهم بالتهليل

والنكبير حتى تخيل لهم أن الوادى كله أنصار وبأيديهم السيوف القاطعة والرماح الطويلة فاختلفوا بهم اختلاط الماء باللبن ولم يهلوهم أقل أمهال فلم يتمكنوا من ترتيب الدينام ودارت الحرب رحاها فضربت المدافع واشتغلت السيوف والرماح فلم تر إلا رأساً بالحسام طائراً وبعد ساعات ركن جيش الحكومة الى الفرار فولوا الأدبار وسيوف الأنصار تقطع في رؤسهم وسواعدهم حتى مزقوهم شر ممزق ولم يبق منهم الا شردمة قليلة وصلت بهم الى الباخرتين فركبتهما ولازت بالفرار راجعة الى الخرطوم وفيها أبو السعود ومن نجاة معه وقتل في جملة من قتل الضابطان وغنم المهدي أسلحتهم وذخيرتهم .

هذا ما كان من أمر جيش الحكومة . وأما ما كان من أمر المهدي فإنه رأى أن الحرب قد بدأت بينه وبين الحكومة بالفعل . وأن الجزيرة لم تعد صالحة مركزاً للجهاد نظراً لتعرضها لهجمات الحكومة وقربها من الخرطوم . فعمل مراكب وقطع عليها هو وأنصاره الى الضفة الغربية . ولما رسي بالشاطئ الغربي التفت حوله كثير من رجال قبيلة دقيم وكنانة وغيرهم وقدموا له الأقوات وما يحتاج اليه وبايعوه على الطاعة والجهاد في سبيل الله . وهذه صفة البيعة التي كان الناس يبايعون بها المهدي :

(بايعنا الله ورسوله وبايعناك على الطاعة والجهاد في سبيل الله . وأن لا نسرق ولا نزني ولا نأتى بهتان نفثرية ولا نعصيك في أمر بمعروف ونهى عن منكر . بايعناك على زهد الدنيا وتركها وأن لا نفر من الجهاد رغبة فيما عند الله) .

ثم قال المهدي للناس انه سيتوجه إلى جبال ماسه وقدير في مديرية فشودة ويحيط بجبل قدير جبال كثيرة سكانها النوب وهم مجوس عراة . والآن دخل جيلهم الإسلام ولبسوا كالتناس . ويسكن في سفح الجبل قبائل من الأعراب ويبلغ عدد الذين رافقوا المهدي نحو عشرة آلاف مقاتل سلاحهم السيوف والرماح . وبعد ما وصل الى قدير أرسل مذكوراً علماً يحث فيه جميع أنصاره إلى الهجرة اليه والجهاد معه .

وفي الشمال الغربي في جبل قدير جبال تبلغ المائة أو أكثر متدانية من بعدها يطلق عليها اسم جبال ثقل وسكانها عنصري يعرف بهذا الاسم متنازلون من قبائل العرب والنوبة . ولغة أكثرهم العربية وكلهم يخضعون لملك يدعونه بالملك وبلادهم خصبة . وكان الحاكم في فشودة راشد أمين بك .

ولما وصل المهدي إلى قدير قام راشد بحملة وهي جيش الحكومة إلى قدير ومعه كيهنكوم زعيم قبائل الشباك فنهض اليهم المهدي بالانصار وبأيديهم السيوف القاطعة والرماح السنية اللاذعة ، وكانت أكثر أسلحتهم . غير أن هذه السيوف والرماح بأيدي رجال كالليوث في الشجاعة وبعرفة الحرب في غاية البراعة ، وكان الموت في نصرة المهدي أشهى إليهم من الحياة واصطلاء ناز الحرب أشهى عندهم من الشهد في الكاسات ، وعندما التقى الجنان ودارت رحى الحرب والتقى الأبطال بالأبطال والرجال بالرجال وامتلأ الجو بأصوات المدافع وصار كلا الطرفين بين التقدم والتأخر ، ولكن الانصار كانوا على ثبات شديد ، وعندما رأى جيش الحكومة شجاعة الانصار وسيوفهم ورماحهم الطوال وقد اختلطوا بهم أشد الاختلاط وأنهم لا يولون الأدبار

ركن إلى الفرار ففتك به الأنصار ، وكان يزيد على ثلاثة فصائل فغنم المهدي أسلحتهم وذخيرتهم فجاءت هذه المسألة بالنسبة للحكومة ضغنا على إيالة حيث زادت قوة المهدي فأصبح عنده من الأسلحة النارية التي عندها من الحكومة ما يزيد على ألف بندقية من طراز منهجتون .

وفي إقامته بتقدير وفد إليه الشيخ نواى زعيم قبيلة الحوازمة التي تسكن بين دارفور وكردفان وماشية هذه القبيلة البقر وإسماعيل بن الأمين ولندوق زعيم قبيلة الأفديات وهى قبيلة معروفة بعدم إكرام الضيف ومع كل واحد منهما مائة فارس بايعاه على الطاعة .

تعيين عبد القادر حلمى باشا حاكما للسودان

وعزل محمد رءوف باشا من الحكمدارية

وحملة يوسف باشا الشلالى

فى ربيع الثانى سنة ١٢٩٩ هجرية فصل محمد رءوف باشا من الحكمدارية وعين بدله عبد القادر باشا حلمى ، وبعد عشرين ليلة غادر محمد رءوف باشا الخرطوم قاصداً مصر . وناب عنه فى إدارة شئون الحكمدارية وكيالها ججرا الألمانى وتعهد للحكومة بالقبض على المهدي إن هى ساعدته بالجيش ، فجردت الحكومة ستة آلاف جندى تحت قيادة يوسف باشا الشلالى منهم الثلث من الجنود النظاميين وضابط برتبة قائم مقام واثنتان برتبة بكباشى واثنتان من مشاهير الصناجق قواداً للجنود غير النظامية الباشا بوزق وغادرت الحملة

الخرطوم في منتصف جمادى الأولى سنة ١٢٩٩ هجرية على عدة بواخر قاصدة فشودة ومنها إلى قدير وبعد وصولها إلى فشودة أرسل يوسف الشلاحي كتاباً إلى المهدي يدعو فيه إلى الطاعة والتسليم ويحذره فيه غاية التحذير وعرض في خطابه بكثير من الشتائم التي لا تليق صدورها من فرد من الأفراد إلى مثله .

فكيف بالمهدي أظن فيها من الإنكار والتخويف وظن أن المهدي عن ينقاد وينحل عزمه بالتخويف وهيبات فإن المهدي ذو عقل ثاقب وعزم على الأمور صابر ولم يقدم على هذا الأمر إلا بعد ما استعمل الروية وعرف العاقبة وما كانت كتابة يوسف إلا كتابة جندي لا يعرف كيف يكتب ولا كيف يخاطب ولا لوم عليه لأنه جندي لم تكن له معرفة بالعلم ولا الكتابة بل كان أمياً وقد ضربت عن ذكرها صفحاً فرد عليه المهدي وهذا نص رده :

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله المنتقم القهار والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الأخيار وبعد فمن العبد المحتصم بالله محمد المهدي بن السيد عبد الله إلى يوسف حسن الشلاحي ومن معه من الجموع وصل إلينا كتابك وصار معلوماً لدينا وقوفكم على الإنذار ومجاهرتكم بالإنكار وكان قصدنا أن نضرب عن إفادتكم صفحاً ونطوى دون إفادتكم كشحاً ولكن أردنا أن نبين لكم غلطتكم فيما ادعيتموه بالبراهين السواطع أما قولك إن إرسال الطلائع تنافي دعوى المهدي لأن علم الغيب ضروري لها فنقول هذا جهل منك بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه كان يرسل الطلائع كحذيفة اليماني وبلال

والوزير بن العوام فلم يكن ذلك منافياً لرسالته صلى الله عليه وسلم فكيف
يكون منافياً لمهدينا؟ وقتلنا إننا قتلنا جملة من المتوطنين بهذا المكان ظلمنا
وعدوانا فهذا كذب صراح لأننا لم نقاتل إلا من حاربنا وقتلنا إننا قتلنا
العساكر غدرًا في الوقعتين أبا وقدير فهو قول باطل لأننا ما بدأنا بالقتال بل
هم بدءونا بالقتال وما جاءوا إلا لقتالنا وقتلنا إن هؤلاء العساكر ما أرسلتهم
الحكومة لحربنا بل ليقفوا على ما عندنا من الأدلة فهو باطل لأن الحكومة
لو كانت تقصد ذلك لما أرسلت العساكر الأغنياء وأعطتهم السلاح الناري
بل كانت أرسلت العلماء وأهل الدراية بهذا الشأن وقتلنا طلبوا من الله كرامة
تدل على مهديتهم فاعلموا أننا لا نطلب من الله كرامة لمهدينا بل نقب عند
حد عبوديتنا فإن أظهرنا كرامة فبمشيئته والحكمة يعلمها سبحانه وتعالى
ونجملها وقلت لا تعتز بإسماعيل الأمين ونواي . فاعلم أني منصور على كل من
ناوأني من الثقلين وقتلنا إنكم أمسكتكم أربعة رجال من طليعتنا وأرهقوهم
تعذيباً فاعلم أنهم مأجورون ولا بد أن يوفىكم الله بأيدينا وتذوقوا العذاب
بما صدقتم عن سيدنا الله . وقتلنا إننا أؤدينا أمركم بعدم محاربتنا حتى نتعدى
الحدود وهذا قول لا يفوه به غير ضغفاء العقول لأننا تمددنا حدودكم وخالقنا
مقتصركم من يوم قتلنا عساكركم بأبا . وبعد هذا ليس بيننا وبينكم غير الحرب
والطعان والسيوف والسنان والسلام على من اتبع الهدى وخشى عواقب الردى
واعلموا الله على من كذب وتولى .

ولما وصل رد المهدي إلى يوسف غضب غضباً شديداً وأمر بزحف
الجيش في الحال فزحف من فشودة في العشرة الأواخر من جمادى الآخرة .

هذا ما كان من أمر يوسف ، وأما ما كان من أمر المهدي فإنه أحصى
من مبعيه من المقاتلين فكانوا اثني عشر ألف مقاتل ما بين فارس وراجل
وبأيديهم السيوف القاطعة والرماح والبنادق ذات الطلقات المتتابعة ، وهي
بأيدي رجال على الحرب بوسائل وفي الوغى ليوس جواسر ، فزحف بهم
للقاء يوسف في الطريق^١ ، ورجا من الله أن يكون حليفه النصر والتوفيق ،
وبات عند سفح جبل الجراة ، والحملة وهي جيش الحكومة تبعد عنه مسافة
عشرة أميال أو أكثر ، وفي اليوم الثاني زحف المهدي بالأنصار على جيش
الحكومة فتحصن جيش الحكومة داخل زريبة ، وبدأت الحرب ودارت
رحاها بين الفريقين ، وكان جيش الحكومة على أتم استعداد وتنظيم فأطلق
مدافعه بنظام وثبات فأتت منها عدد كثير من رجال الأنصار ، من مشاهيرهم
آخر المهدي حامد والشيخ آدم الأعيسر وغيرهم ، فتقدم المهدي والأنصار
تحت نار من المدافع والرصاص كالمطر حتى دنوا من الزريبة ، فنزل المهدي
عن راحته فاستقبل القبة وصلى ركعتين وسأل الله النصر .

وما كاد يفرغ حتى اقتحم الأنصار المربع ودلجوا في الزريبة ودارت رحى
الحرب وحمل الوطيس واختلط الرجال بالرجال والأبطال بالأبطال واشتغلت
السيوف والرماح فلم تر إلا رأساً طائراً وجباناً حائراً ، وعندما رأى رجال
يوسف ما حل بهم وكنوا إلى الفرار وولوا الأدبار واشتغلت فيهم سيوف
الأنصار ورماحهم فزقوهم كل ممزق وتركوهم أشلاء للمقبحان والرحم ، وقتل
القائد يوسف وهو مرأيا الأدبار ، وقتل قواد جيشه حالة الفرار ، ثم دخل
بهم المهدي الزريبة وأقام بها ثلاثة أيام مشغلاً بجمع الغنائم ، ثم عاد إلى قصر
(٢٠ - تاريخ محمد أحمد المهدي)

ونجا من جيش الحكومة نحو مائة رجل فلاحقوا بفشودة ، وبعد وصولهم
والرعب قد ملأ قلوبهم أخبروا بما حصل وشاهدوه ، وليس الخبر كالبيان
وأهم لاقوا رجالا لا يصطلى لهم بنار ولا يشق لهم غبار ، فوارس عند اللقاء
اللقاء ، قوى السواعد فى الوغى .

ترتيب جيش المهدي

شاع نصر المهدي هذا فى كل الجهات ، وافل الناس يفدون إليه زرافات
وزرافات ثم بدأ للمهدي وأن ينظم جيشه فرتبه على ثلاث فرق : الفرقة الأولى
مؤلفة من قبائل السودان الغربى ، ورأيتها سوداء ، وقائدها الخليفة عبد الله .
والثانية رأيتها خضراء ، وقائدها الخليفة على بن محمد حلوا وهى مؤلفة من
القبائل التى تسكن على ضفتى النيل الأبيض . والقبائل التى تسكن الجبال التى
حول جبل قدير . والثالثة من قبائل السودان الأوسط وهم أهالى الخرطوم
وبربر ودنقله وقائدها ابن عم المهدي الخليفة محمد شريف بن حامد ، وجعل
القيادة العامة لأخيه محمد بن عبد الله ، ولقبه بأمر جيش المهدي ، وأسند
القضاء إلى الشيخ أحمد جباد ، وهو سورى الأصل ، ولقبه بقاضى الإسلام
وعقد له راية على ذوى قرابته ومواطنيه وجعلها تابعة للخليفة محمد شريف ،
وجعل أحمد بن سليمان أمين بيت المال ، وهو من قبيلة المحس بدنقلة ، وكان
صاحب سر المهدي وشورته فى الأمور المهمة .

وما كان المهدي يصل إلى جبل قدير حتى لحق به كثير من أعيان السودان
الأوسط وبابعوه على الطاعة والحرب معه ، وكتب لبعضهم بالولاية على

بعض الجهات ، وكان من هؤلاء المهدي بن أبي روف زعيم قبيلة جهينة التي تسكن جنوب سنار وهي قبيلة كبيرة من قبائل البادية ، والشيخ مضوى المرسى وأصله من قرية العليفون ، وأحمد بن المكاشف وولده المكاشف رجل من كبار الصالحين وله أتباع وقريته قريبة من سنار وأصله من قبيلة السكواهلة التي تسكن حول سنار ورجالها مشهورون بالكرم والشجاعة .

وفي أواخر شهر جمادى الأولى علمت المديرية بشخص أحمد المكاشف فأمرت بمصادره أمواله فلم يعثر على مال ، فأخذ أخوه عامر وضرب ولم يطلق حتى أفتدى بألف ريال ولم يكن عنده غيرها . وبلغ الخبر ناظر القسم محمود سعد فاحتدم وقال : كيف يدفع هذا المال لمدنوب المديرية وأنا ناظر ؟ فلا بد أن يدفع لي مثله ، ثم ذهب إلى القرية فأخذ عامرا وبائع في ضربه ليدفع له مالا ، فاجتمع جماعة من محبي عامر ودفعوا للناظر مائة وخمسون ريالاً ووعدوه بمثلها بعد أسبوع .

ثم إن عامراً لما رأى ذهاب ماله وأنه أصبح فقيراً وقد لقي مالمقى من الإهانة عول على مغادرة بلده واللحوق بالبادية لأن له بها أصدقاء ومريدين من أعراب . جهينة ، فتصدق عليه ناس من أهل القرية بدواب يحمل عليها نساءه وأبناءه ، فخرج من القرية وبلغ الخبر الناظر محمود سعد ، فركب خلفه ومعه نحو عشرين راكباً من عبيده فأدركوه عند حى من أحياء العرب فأوثقوه كئافاً وسلبوا ماع نساءه من الخيل وأهاتهم أشد الإهانة وانصرفوا بالدواب وما عليها من الأمتعة ، وكان عامر لا يفتر عن قراءة هذه الآية : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير) وهذه الآية

نزلات على النبي صلى الله عليه وسلم وهو مهاجر من مكة إلى المدينة فهي أول آية أمر فيها بحرب الكفار . وكان قبلها يأمر بالصبر ، قال الله عز وجل : (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغا فهل يهلك إلا القوم الفاسقون)

وما يادح عامر مكانه حتى التفت حوله نحو ألف مقاتل كلهم أطوع له من بنائه على الحرب ، ثم قال لهم : إنه وزير المهدي ، وتسامع الناس بخبره فأقبلوا إليه من كل نجد وغور وبايعوه على طاعة المهدي والمحاربة ، ثم زحف بمن معه وكانوا نحواً من ستة آلاف مقاتل على مدينة سنار والتقى في طريقه بمندوب الحكومة الذي أخذ منه الفلوس ومعه محمد أغا الصنجق فقصده الإيقاع بهما ففهما منه وأعلما مدير سنار بالأمر ، ولم يكن على علم بشيء مما يحصل فورد عليه الخبر منها بإرسال اثنين من أعيان سنار بكتاب له ، فانتدب المدير محمد عبد القادر القاذي ورجل آخر وسلمهما كتاباً مملوءاً بالتهديد والوعيد له إن هو لم يسلم نفسه ، فاجتمعا به ، وهذا ما تلاه بعد عودتهما . قال : لم نبعد عن منازل المدينة أكثر من ميل حتى قبضتنا طليعة عامر وساقوننا إلى معسكره فأوقفونا بين يديه والسيوف مسلولة على رؤوسنا وعامر لا يتكلم إلا بالآية الشريفة (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نظرهم لقدير) وسيفه موضوع على فخذه ، فقبض عليه وقال : ما الذي جاء بك ؟ قتلنا سمعنا بخبرك وجئنا نبايعك فقال : أحسنتما أودتوه منه وبايعناه . وبعد وقت قليل ، قلنا له إن المدير أعطانا كتاباً لك وأخرجنا له فأمر تميزه قبل أن يقرأه ، فتناوله بعض أصحابه ومزقه وقال في صيحة غداً

سأدخل مدينة سنار إن شاء الله ، وفي الغد زحف إلى المدينة وخرج المدير للقائه خارج المدينة ومعه مائة جندي ، فانتفض عليهم عامر ومن معه وبأيديهم السيوف المسلوطة والرماح الطويلة ، فلم يثبت المدير ومن معه لضربهم وطعائهم ، فلم تمش ساعات حتى ولى المدير ومن معه الأدبار واكتنن إلى الفرار والسيوف تقطع منهم الأعناق والبنان ولم ينج منهم غير المدير وجماعة قليلة دخلوا في سفينة في البحر ، ودخل عامر المدينة عنوة وبعد دخوله لها قصد دار محمود سعد فقتله .

زحف المهدي من جبل قدير إلى الأبيض

واحتلاله له عنوة

بعد الوقائع المتقدمة التي كان فيها النصر حليف المهدي ، قام المهدي من قدير قاصدا احتلال الأبيض وهي عاصمة كردفان وباحتلالها تصير دارفور في قبضته بدون عناء لقطع المدد بينها وبين الخرطوم وباحتلاله لسكردقان ودارفور يكون قد احتل بلاداً خصبة ، وأكثر واردات السودان الشرقي منها ، فلو قطعت وارداتها عن الخرطوم وقعت في نجاعة ، توجه المهدي من قدير وأنصاره الذين معه كالجراد المنتشر حتى وصل إلى كابة وهي منهل جنوب البحر الأبيض ، وهي أقرب منهل إلى الأبيض ، فاستقبله فيها خلق كثير ومعه من المقاتلين نحو مائتا ألف أو أكثر ، منهم نحو ثلاثين ألف على جياد الخيل .

ولما وصل إلى كابة بعث رسولين بكتاب إلى محمد سيد مدير كردفان

ومن معه من قواد الجيش وجميع سكان البلد يدعوم فيه إلى التسليم ، وبعد وصولها إلى المدير استدعى قواد الجيش وأعيان البلد وقرأ عليهما خطاب المهدي واستشارهم في الأمر ، فكان جواب القواد عدم التسليم وأمروا المدير بقتل الرسولين فلما دعوتهما فأمر إسكندر أحد القواد بقتلهما رميا بالرصاص ففعل . ومكث المهدي أياما ينتظر عودة رسوله إلى أن جاءه الخبر بقتلهما .

ولما بلغه الخبر أمر أخاه محمد بن عبد الله قائد جيشه أن يزحف بالجيش بعد منتصف ليلة الجمعة لست ليال بقين من شوال سنة ١٢٩٩ من الهجرة ، وأن يكون المهجوم في الغاس ، وخطب المهدي في الناس وحشهم على الجهاد والصبر عند النزال وملاقة الرجال ، فزحفوا وكان جيش الحكومة عمل حوله خندقا واستعد للقاء أنصار المهدي ويده المدافع الكبيرة والبنادق ، فبدأت الحرب ودارت رحاها وحمل وطيسها فضرب الجنود المدافع بنظام فكان يسمع لها دوى كالرعد ، واستعمل الأنصار المدافع والسيوف والرماح ولم يزلوا في عراك شديد إلى أن اقتحم الأنصار الخنادق فقهقر الجنود وقتل كل من الفريقين رجال وأعيان ، فمن جملة من قتل من أعيان الأنصار محمد بن عبد الله شقيق المهدي وقائد جيشه ، ويوسف شقيق الخليفة عبد الله والقاضي أحمد جبارة .

وبعد هذه الواقعة زحف المهدي بخيله ورجاله وعسكر في عد العشر ورتب مقاتله حول المدينة ومنع دخول الأقوات إلى المدينة .

هذا ما كان من أمر المهدي . وأما ما كان من أمر الجنود فإنهم كانوا يخرجون إلى منازل الأهالي ويأخذون ما فيها من الأقوات ، إذ لا أقوات

في مخازن الحكومة ، وفي مستهل المحرم بدأ الناس يذبحون الماشية والحجاة
آخذة في النفث واشتدت حتى أكل الناس الحمر والكلاب والجلود ، ثم
فقد كل شيء يقتاب به ففر كثير من الجنود وسلبوا أنفسهم للمهدى
والأهالي كذلك ، واختل نظام الجيش وتمردوا على قوادهم ، وصار الخندق
خاليا من المدافعين ،

وفي أواخر شهر ربيع الثاني سنة ١٣٠٠ هجرية طلب محمد سعيد وهو
المدير قواد الجيش وتشاوروا في الطريقة التي يتبعوها فاتفق رأيهم على
التسليم وطلب الأمان من المهدى بعد أن تيقنوا أنهم غير قادرين على البقاء
بهذه الحالة وقد حصل لهم اليأس من نجدة تأتيهم من الخرطوم أو من غيرها
فكتبوا للمهدى كتابا يطلبون فيه الأمان وأنهم يسلمون له البلد ، وعندما
وصله الكتاب كتب لهم كتابا بالأمان .

وفي اليوم التالي الذي ضرب أجلا للتسليم خرج محمد بن سعيد ومن معه
من القواد والجنود وبطريقة منظمة ، فقابلهم المهدى راكبا ، ولما دنوا منه
ترجل عن جواده وجلس وأذن لمحمد سعيد وقواده بالجلوس ، ثم أمر
بإحضار الطعام والشراب لهم ثم دخل المدينة وأقام بقصر المدير ، وبعد هذا
الاحتلال أسند القيادة العامة على جيشه للخليفة عبدالله وجعله مستشاره الذي
لا يقطع أمرا دونه ، وعين أحمد بن علي قاضيا بدل أخيه أحمد بن جباره ،
ونصب أربعة رجال دعاهم بالأمناء وفوض إليهم النيابة عنه في نظر المسائل
العظيمة ، ثم أخذ يبعث الرسائل للناس في كل الجهات يحثهم فيه على مبايعته
والجهاد معه ، وفي أثناء هذه المدة سلبت للمهدى قرية بار وهي قرية شمال

الأيض كثيرة الجنان وبها رجال ذو مكانة عظيمة ، ولكن أهلها معروفون
بكثرة النزاع فيما بينهم لأنهم من قبائل شتى ، وكل قبيلة تطلب الرياسة
لنفسها .

تسليم دارفور

دار فور بلاد واسعة في الجنوب الغربي من كردفان ، وبها قرى وبادية ،
وهي بلاد خصبة تجود بقمح كثير ، وهو فيها قليل الثمن ، ويزرع فيها القباك
وله أهمية كبيرة ، ومن أكبر وأشهر مدنها الفاشر دانيال ، وفيها جبال
كثيرة ، ومن أشهرها جبل مر وهو جبل يتفجر منه الماء ، ويزرع فيه
القمح والفواكه بكثرة .

ولنعد إلى تسليم دارفور للمهدى ، شاع خبر المهدي في دارفور فأمن به
أكثر أهل البلد واستعدوا لنصرته . وكان وكيل مدير داره محمد خالد وملقب
بزقل وهو من قرابة المهدي وداع لنصرته سراً ، ومدير دارفور سلاطين وهو
نمساوى نصراني ، وعندما شعر سلاطين بأن أهل البلاد صاروا أنصاراً
للمهدى وأن الطريق انقطع عليه من جهة الحكومة فلامؤنة ولامدد ، فالمهدى
احتل الأيضا وهو طريق الذهاب من الخرطوم إلى فود عول على أن يظهر
الإسلام ويضم الكفر ليتخلص من الموت المحدث به ، فتمنح إلى داره
في الفاشر في أواخر سنة ١٣٠٠ هجرية ، واجتمع بمحمد خالد (زقل) وسأله
أن يكون رسوله إلى المهدي ، وعلى أن يكون الأمر مخفياً إلى ما بعد حرب
هكس وجنوده ، وكان ذلك من سلاطين نظرية في العاقبة ، فإن انتصرت الحكومة

فهو منها وإن انتصر المهدي فقد عمد لخلاص نفسه . وعندما قدم محمد رسالته من سلاطين وكان عند المهدي خبر بقدومه استقبله خارج المدينة ، وضربت مائة مدفع تعظيماً له ، وقدمت له هدايا كثيرة ، ثم قرأ كتاب سلاطين على بهوس الأشهاد في المسجد ، يقول فيه : إني كنت نصرانيا من نشأتى إلى الآن ، وقد بدأ لى ترك دين النصارى واعتناق دين الإسلام ، وإني من الآن مسلم ومؤمن بالمهدي ومصدق بدعوته ، وأنا مستعد لتسليم البلاد والدخول في دعوة المهدي .

ولم يكن ماعمله سلاطين إلا نفاقاً ومكيدة منه ، فكان في المهديّة يقول : أنا المخصية المدلقة بالشعرة ، فإذا انقطعت الشعرة وقعت المعصية وكان بعد ذلك كما قال ثم رجع محمد خالد إلى دارفور وكتب له المهدي منشوراً بالولاية عليها من قبله وأوصاه يا كرام سلاطين ، ولما وصل محمد خالد إلى داره خرج للقاءه سلاطين ومعه القواد والجنود وبعد ما دخلوا المدينة واجتمع أعيان البلد قرأ محمد خالد كتاب المهدي . فلم يخالف أحد منهم في توليته ، ثم كتب سلاطين كتاباً إلى جمعة بك مدير الفاشر يأمره بالتسليم للمهدي . وأرسل محمد خالد أيضاً كتاباً لمدير الفاشر دعاه فيه للتسليم والدخول في طاعة المهدي وحذره فيه من سوء العاقبة إن هو خالف ، فأجاب بالرضى والقبول ولكنه نقض ذلك العهد واستعد للحرب ، فعمل استحكامات قوية لجيشه ، ولكنه فات عليه أن يجعل الآبار التي يشرب منها الجيش داخل استحكامات ، فقدم محمد خالد وجيشه وهجم على الفاشر ليأخذها عنوة ، ودارت الحرب بين الفريقين بشدة ، وكان جيش الحكومة مستميت وكان الانصار في غاية من

قوى الحماس والشجاعة ، فهجموا على الآبار ليلاً ودفنوها فأصبح جيش الحكومة بلاماء والبلاد محاصرة من كل جهة .

ولما رأى جيش الحكومة أنه لا مدد ويأتيه وأنه لا إخلاص له إلا بالتسليم سلم . وبعد احتلال الفاشر جعل محمد خالد محمد سليمان قائداً ؛ ولما تم لمحمد خالد الاستيلاء على دارفور كلها أرسل خطاباً للمهدى يبشّره بما أتيح له من النصر فسر المهدى بذلك سروراً عظيماً حيث أن هذه البلاد واسعة الأطراف سلبت بلامعارك دامية وقتلا من كلا الطرفين كثيرة مع أن من فيها من الجنود لو علموا بأن فيه مدداً يأتهم لما سلموا ، ثم رد المهدى على محمد خالد بكتاب فيه . أنه يفوضه في كل ما يراه لازماً وأذن له بالمبايعة له وأمره بإرسال سلامين له فساكن اجتماعه به في الدهر .

ذكر واقعة هكس

بعد احتلال الأبيض بالقرب منه

وعندما بلغ الحكومة أن المهدى احتل الأبيض عاصمة كردفان ودانت له كردفان وآمن به كثير من أهل الجزيرة ، ومن جهة الشمال كثير من أهل بربر وغيرهم ، وكثير من أهل الخرطوم وهي عاصمة البلاد وما حولها ولم تبق بقعة من السودان إلا وعندها علم بانتصاراته ومستعدة لتكوين من جملة أنصاره عولت على أن تبعث إليه جيشاً على ما يرام يسترجع ما أخذه ويفرق جموعه ويأتي به أسيراً أو يتركه على الجدالة قتيلاً ، فبعث إليه بجيش من

الخرطوم في شهر ذى الحجة سنة ١٣٠٠ هجرية وهو مؤلف من ستة عشر ألف جندي نظامي ، ومعهما ألف من السوارى لابسى الدروع ، ونحو ألف جندي فرسان ، وقيل كان نحواً من ثلاثين أو ستة وثلاثين ألفاً ، وكان سلاحه من طراز منجوتون وأربع منافع كروب وستة مدافع متليوز بستة طلقات ، وثلاثون مدفعا من الطراز الجبلى ، وستة عشر صاروخا حريبيا . أما القوات والذخيرة فكثيرة جداً . فالأقوات تسكنى لمئونة ستة أشهر ، فالجمال معدة للحمل تزيد على ثلاثين ألفا عدا البغال ، وقائد هذا الجيش هكس وهو إنكليزى على نصرانيته .

وهنا يتمجب المتعجب والدهر أبو العجب ويعلم أنه لا مفر مما قضى الله وقدر ، كيف يكون ثلاثون ألف مسلم يقودها نصرانى ، والقائم بالحرب المهدي وحربه حرب دينية قام بها لنصرة دين الإسلام ، فأى انسجام بين هذا القائد والجيش الذى يقوده ؟ فهو رجل أجنبى لا تجمع مع هذا الجيش أى رابطة من الروابط التى تربط الجيش ، فالروابط التى تربط الجنس الأدمى هى رابطة الدين وهى أقواها ورابطة القبية ورابطة اللغة ، فهم مسلمون وهو نصرانى ، وهم عرب وهو عجمى ولم تكن بلده مجاورة لبلادهم ، وهذا الأجنبى احتل قومه بلاد مصر وعاصمتها القاهرة سنة ١٨٨١ م فأذلوا رجالها وأخذوا منافع بلادها وصاروا حكامها على كره من أهلها ، فيأمرون الذى يولونه فيعمل على حسب إرادتهم سواء كان ذلك من مصلحة البلاد أم لا ، وإن خالفهم عزلوه وأقصوه ، فهم لا يريدون إلا مصلحة بلادهم وقوة نفوذهم مع زعمهم الكاذب أنهم دعاة للإصلاح والسلام .

والكن اليوم لم يكن ذلك خافيا على أحد ، فقد تبين بطريقة أوضح من شمس الظهيرة كذبهم وخداعهم لكل الشعوب ، وقد استقل بحمد الله كثير من البلاد من حكمهم ونفوذهم كمصر والسودان ، والباقي يتخلص عن قريب إن شاء الله ، فهو الذى به العون والنصر عليهم أعداء الله .

وهذا الجيش يعلم ثورة عراقى باشا الذى أقامها ضد هؤلاء الأجانب ليخرجهم من بلاده ولكنه لم يكتب له النصر وكثير منهم كان فيها ويعلمون السبب الذى حمله على القيام بها ، فهو ما يراه من الاستبداد من هؤلاء الأجانب وما يراه من تكبرهم وتجبرهم ، ولكنه لم يفلح لأن الملك كان ضده فأخذ أسيراً واعتقل فكان ذلك مصيبة على مصر ، لأن هذه الثورات مكنت الإنجليز فى بلاد مصر : فعملوا جيشاً على القلعة وآخر فى قناة السويس ويفكر رجال هذا الجيش فى المهدي فإذا به رجل مسلم يجاهد باسم الدين الإسلامى ونصرته به ، فهو يوافقهم فى الدين والعروبة وبلاده كجزء من بلادهم ، فالنيل مار على بلاده ومنها إلى بلادهم وهو يدعوهم إلى أن يكونوا فى صفه ، فترى كل رجل منهم مستغرق فى الفكر وذاهب بحسبه بالموافقة من قلبه وعلى قدر ما يفكر لا يرى ما يدعو للحرب أهو يحارب لإعلاء دينه ؟ أهو يحارب لحماية بلده ؟ أهو يحارب لماذا ؟ فيجيبه ضميره بأن حربك هذه ليس فيها شيء من الدواعى التى تدعوك للحرب ، وأن المهدي سيحكم عليك بالكفر ويستبيح دمك لأجل هذا القائد ، وسيجعل دليلاً لآية المحكمة (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم فإِنَّه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ، فترى الذين فى قلوبهم مرض

يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين) ثم يعرض عن تلك الأفكار ويقول : من واجب الجندي امتثال أوامر الحكومة سواء تبين له خطأها أم صوابها ، وعند إنفاذ المقدور يضيع التدبير فيقع المرء في المحذور وترى هذا القائد هكس لكفره يغتر بنفسه فيفتخر ويقول أنا هكس : السماء إن وقعت أرفعها بالسنج ، وهى المدى التى تسكون فى أفواه البنادق مع أنه لو قعدت عليه صاعقة أو أقل منها لم يستطع دفعها ، والأرض إن تحركت أثبتها بالجزم وهى نعال الجيش ، فالعمى بصيرته معتمد على حوله وقوته ، وما ذاك إلا كغيره وعدم معرفته بحقيقة نفسه .

هذا ما كان من أمر الحكومة وأما ما كان من أمر المهدي فإنه بعد ما بلغه خبر هذا الجيش أمر جيشه أن يعسكر خارج مدينة الأبيض وكان يعمل للجيش استعراضا فى الأسبوع مرتين وصفة الاستعراض أن تقف كل قبيلة تحت رايتها ثم يأتى المهدي إلى كل راية فيعظمهم ويحضرهم على الجهاد فى سبيل الله ، وأمر المهدي الحاج محمد أبو قرجة وهو أحد قواده أصله دنقلى استوطن أسلافه القطين ، وهو قائدهم صار بعد ذلك أميراً على السودان الشرقى وكان اجتماعه بالمهدي فى جبل قدير ، وكان من أجود أمراء المهدي وأعظمهم وعمر ابن إلياس أم بربر ومعهما أربعون ألف مقاتل بالذهاب إلى قرب أم درمان . فإذا غادرتها الحملة وهى جيش الحكومة ساروا خلفها .

وبدأت الحملة سيرها من أم درمان إلى الدويم وبعد ما تجاوزت البحر ، وإذا بأنصار المهدي يهاجمونها فاضطرت أن تسير فى شكل مربع يحيط بدواب

الحملة وكانت لا تقدر على المبيت إلا داخل زريبة من الشوك وكل من يبعد عن الزريبة يقع في يد الأنصار ولحق الجنود كثيراً من التعب وقلة النوم لأن الأنصار كانوا يهاجمونهم في الليلة عدة مرات ، وضعت دواب الحملة لقلة العلف ، ولما بلغت الحملة الدهر وهو على مرحلتين من الأبيض وعند المهدي خبرها قام محرّضا على الجهاد ، وقال لهم عند ابتداء الحرب قولوا : الله أكبر اللهم نواصينا ونواصيهم بيدك وأنت القاتل لهم .

وفي يوم الجمعة مستهل المحرم سنة ١٣٠١ هجرية وصلت الحملة إلى شيكان وكان المهدي أرسل قبل وصولها الخليفة عبد الله ومعه جيش ليحول بينها وبين الأطنى التي في أم مصارين وأرسل قائداً آخر ومعه جيش ليحول بينها وبين الأطنى التي في البرك . وفي يوم السبت زحف المهدي من الأبيض وعسكر في البر . وكان عدد مقاتله نحو ستين ألف فارس مسلحين بالبنادق وعدد كبير مشاة وسلاحهم السيوف والرماح .

وفي صبيحة الأحد ثالث المحرم هجم حمدان أبو عنجة بالفرسان على ركن من أركان الزريبة وكانوا في غاية من البسالة وقابلهم الجيش بكل قوته ودارت رحى الحرب وحمى الوطيس فلم تسمع إلا أصوات المدافع كالرعد وقتل من كلا الفريقين عدد . فمن أعيان الأنصار عبد الله بن النور وهو من أهم القواد ومحمد فوزي كاتب المهدي وغيرهم ، ومن أعيان الحملة رجب بك وجورج بك وغيرهم وغنم الأنصار مدفعين ، وفي يوم الأحد هذا نفذت الأطنى التي في شيكان وعطش الجيش عطشا شديداً وصار الجنود يشربون الماء العسكر من شدة العطش وتورد الجنود على قوادهم وسقطت هيئة النظام

من قلوبهم حتى إن القائد إذ أمر الجندي بشيء لا يجاوبه بغير الضرب واخفق قائدهم هكس ولو رأوه لقطعوه إرباً إرباً لأنه هو وحكومته هم الذين عرضوهم لهذه المهالك لتضعف مصر بهلاك جيشها في هذه الصحراء فيعيشون في أرضها الخصبة وهواءها الطيب وفواكهها وخيراتها الكثيرة على حسب ما يشتهون .

وفي صبيحة يوم الاثنين الرابع من المحرم صلى المهدي بغلس وقسم جيشه على ثلاثة فرق وأمرهم بالهجوم على الحملة بعد ما غادرت شيلان نحو ميل سائرة نحو الأبيض وكانت سائرة بغير نظام لما يقاسيه رجالها من العطش فهجم الأنصار عليها من كل جانب وهي سائرة وبأيديهم المدافع والسيوف والرماح وكانت في عيونهم كأنهم قلع من الغنم سيق إلى سيوفهم ورماحهم وليكون حثفها بهذا المكان ولم يكن في استطاعة رجال الحملة مقاومة الأنصار لما بهم من العطش فكنت لا ترى إلا رأساً طائراً بسيف ورمحاً داخل في جوف ولم تمض ساعات حتى صارت الحملة شزراً مزرأاً وكأمس الدابر وقتل قائدها هكس ولم ينبج منها سوى مائة وعشرين جندي وضابطان أحدهما محمد حلي والآخر محمد عزمي وأقام المهدي بالبرك ثلاثة أيام بعد هذا النصر وأيقن أن الله معينه وناصره ومن كان الله في عونته ونصرته لن يغلب .

تفكير الحكومة بعد هذه الموقعة

وما عمله المهدي

فقدت الحكومة كل جلد عند ما بلغها ما حل بها هي وجيشها وأيقنت أن

المهدى منصور من الله ولا راد لما قضاء الله فكتب الحكمدارية تأمرها
بإخلاء الحاميتين من الدويم والكوة وفشوده وسنار لتعزيز حامية الخرطوم .

هذا ما كان من أمر الحكومة وأما ما كان من أمر المهدى فإنه كتب
لكل الجهات يبشرهم بما أتيح له من النصر زياً أمرهم بالانضواء تحت رايته
فكان الناس في كل جهة يخلعون طاعة الحكومة ويتزينون بزى الأنصار
فيلبسون الجبة المرقعة التي هي شعار الأنصار وصارت الوفود تندفق إلى
المهدى من كل جهة ومكان لتبايعه ولتكونهم من أنصاره وسقطت هيبة
الحكومة .

منشور المهدى الذي بعثه إلى الشيخ طاهر وإلى الجهات الأخرى

الحمد لله الولي الكريم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله مع
التسليم وبعد فمن العبد الفقير إلى الله محمد المهدى بن عبد الله جزيل السلام
إلى كافة الإخوان من المحبين ومشايخ الدين لا يخفى عزيز علمكم أن لا غاية
له إلا فيما يرضى الله من كمال الإيمان والإتباع على السنة والكتاب وبصرف
الهمة في هذا الوجه يتولاه الله ويقوم بحظوظه في الدارين وإذا التفت
إلى حظوظه وصرف همه إلى ذلك وكله الله إلى نفسه ولم يصل له من
حظوظه شيء إلا بالتعب القلبي والبدني وأتم أيها المؤمنون الذين يظن بكم
المعاونة على تقويم السنة .

ومعلوم أن جاء الدنيا ولذاتها لا يؤثر في العاقل العارف لأن ما في الدنيا مفارق يصير كأنه لم يكن ولذاتها لا تغنى بحسرتها ، بل عين اللذة تصير عين الحسرة ، فالعاقل العارف لا يسعى إلا في رضى الله .

وعلى ذلك يا أحبائى إني لم أقدم على تنبيه الناس وأحثهم على إقامة السنة إلا بأمر من سيد الوجود صلى الله عليه وسلم . ولم يكذب على سيد الوجود إلا من لا خلق له عند الله .

وفضلاً عن ذلك تعلمون هذا الزمن وما فيه من البدع وما لهم اتحنن من ذلك إلا الغرار بالدين وطلب الهجرة بالذين في هذا الحال وأرد كتاباً وسنة ووعيد من ترك الهجرة وأرد كتاباً وسنة ، كما لا يخفى . وقد كانت أهل الدين على التمسك بدين الله وإقامة السنة فإن كانت قد بلغتكم تلك الأجوبة السابقة فهذا إليكم لتشمروا وإن مثلكم لا بد أن يكون لمثل هذا الأمر أول قائم .

ومعلوم أن من تركه وصد عنه فعليه إثم وإثم من صدمه ، ولا يخفى أنه لا يميز على الله أن يظهر قدرته في أضعف خلقه ويظهر الدين على كراهة أهل المعصية ، فمن أعرض عن ذلك فحسبه الله .

حوادث السودان الشرقى

السودان الشرقى عبارة عن فيافي مترامية الأطراف تمتد من شرق وشمال نهر أنبر حتى شاطئ البحر الأحمر كسواكن وهى متاخمة للحبشة ، ومن قبائل النكا ، ومدينتها الكبرى كسلا وهى مدينة عظيمة كثيرة المزارع (م ٣ - تاريخ محمد أحمد الهدى)

والجنان ، ومدفون فيها السيد العظيم والولى الكبير السيد الحسن بن السيد محمد عثمان المرقنى المكي والهندو وهى قبيلة كبيرة ورجالها رجال حرب . ولهم شجاعة فى الحرب ويسكنون غرب سواكن ويمتدون منها إلى كسلا ، ومنها بنو عامر والهاب وأمارأر وغيرهم . وهذه القبائل يشبه بعضها بعضا فى الأخلاق والعادات وتتكلم بالعجمية وتعيش كما يعيش بعض الأعراب باللبن واللحم وجل ماشيتهم الإبل ويسكن بعضهم رؤوس الجبال .

ترجمة الشيخ الطاهر المجذوب وعثمان دقنه

وما عمله فى شرق السودان ، وما أبداه من الشجاعة ومعرفة الحرب وما أتيح له من النصر

فالشيخ الطاهر المجذوب هو شيخ الطريقة المجذوبية ورث السجادة ، والمراد بها المشيخة فى الدين عن عمه الشيخ محمد المجذوب الصغير تلميذ السيد أحمد بن إدريس المغربى ، وأصلها بطن من بطون قبيلة الجعليين اسمها المجاذيب فنسبة إلى جددهم أحمد المجذوب ويسكنون على ضفة النيل جنوب نهر أتبر ، وقريةهم يقال لها الدامر محل ضريح جددهم أحمد المجذوب فأما محمد المجذوب عم صاحب الترجمة فإنه ولد بهذه القرية ثم هاجر منها إلى الحجاز ، وهناك التقى بالسيد أحمد بن إدريس ولازمه مدة ثم عاد من الحجاز بعد أن نال من أستاذه ما نال وتحصل على درجة عالية فى العلوم النقلية والعقلية والتصوف ، فاستوطن سواكن وترامت شهرته إلى أطراف البلاد وصار له أتباع يعدون بالآلاف وكان الناس يحبونه غاية المحبة ، وعثمان دقنه هو عثمان بن أبى بكر دقنه نسبة

إلى قبيلة الدقنى وهى قبيلة صغيرة تسكن يسواكن ، وكان عثمان من صغره مشهوراً بالميل إلى العبادة وملازمة أوراد الطريقة . وكان مشهوراً بالكرم والشفقة وهو من تلاميذ الشيخ الطاهر المجنوب وكان طائفاً ومحبا لشيخه . ولما وصل منشور المهدي إلى الشيخ الطاهر وفيه أنه يسبحه بنواوة الحكومة والقيام بالدعوة له فى شرق السودان وأنه أذن له بمبايعة الناس له نياية عنه وأنه أمير من قبله على تلك البلاد وبعث إليه الشيخ الطاهر بوفد من أتباعه برأسه عثمان دقنه ومن معه كتاب الشيخ الطاهر يقول : إن عثمان دقنه من خيرة مرديه وأصدق أتباعه من رجال العزم والحزم ، وإن إمارة السودان خليق بها أكثر منى وإننى أستدركف أن أكون تابعا لأفضل مریدی عثمان وسأكون محل مشورته ومديراً للأمر معه وسأمر أتباعى كلهم بالقيام معه لنصرته ومؤازرته ، وأن المانع لى من قبول هذا الأمر لنفسى هو الطعن فى السن وعدم القدرة على التنقل إذ هو من ضروريات هذا المنصب وتلقانى أول من يدعن بالطاعة لثمان .

ولما قدم عثمان على المهدي وجده قد احتل الأبيض عنوة فتلقاه بالحفاوة والإكرام ، ولما أطلع المهدي على خطاب الشيخ الطاهر أعجب به وتبين له أنه مصيب فى تولية عثمان دقنه وحالا سير المهدي عثمان دقنه من الأبيض فى شهر ذى القعدة سنة ١٣٠٠ هجرية وكتب له منشوراً إلى جميع أهالى السودان يعلمهم بأمر دعوته ويأمرهم بطاعته . وفوى المنشور كالاتى :

بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله الولى الكريم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد : فمن العبد الفقير إلى الله محمد المهدي بن

عبد الله جزيل السلام إلى كافة الإخوان ومشايخ الدين ، لا يخفى عليكم أيها الإخوان والأحباب أنكم تعلمون ما أصاب الدين من الضعف وما انتابه من تعطيل الحدود وإني قد وجهت إليكم الشيخ عثمان بن أبي بكر دقنه السواكني نائباً عني فيكم فبايعوه وآزودوه وانصروه ، وإني أزف إليكم بشرى ما أتاح الله لي من النصر والاستيلاء على كردفان ، ولكم البشرى أيضاً بأن الله سينصركم ويثبت أقدامكم ويورثكم السودان الشرقي ويهلك من فيه من جنود الحكومة ، كقوله تعالى : (ألم نهلك الأولين ثم نتبعهم الآخرين كذلك نفعل بالمجرمين) .

هذا ما كان من أمر المهدي وعثمان دقنه وأما ما كان من أمر الحكومة فإنها كانت لها جراسيس في كردفان وبلغوا الحكمداية في الخرطوم أمر عثمان فعولت على القبض عليه قبل وصوله إلى سواكن ولكنها لم تفلح فلم تظفر به ، ولما وصل عثمان إلى هندوب وهي قرية من سواكن بعث رسولا إلى الشيخ الطاهر يخبره بقدومه وكان الشيخ في سواكن .

وفي اليوم الثامن من ذي الحجة سنة ١٣٠٠ هجرية غادر الشيخ الطاهر سواكن إلى هندوب ومعه كل أسرته لمقابلة عثمان ، ولما اجتمعا بهندوب وأطلع الشيخ الطاهر على ما كتبه المهدي قام وسط الجمع ، وبايع عثمان دقنه بيعة المهدي ونزع ملابسه ولبس شعار المهدية ، ثم تتابع الناس على بيعة عثمان اقتداء بالشيخ الطاهر ثم أخذت القبائل في تلك الجهات خبر مبايعة الشيخ الطاهر فجاءوا من كل صوب للبايعة ، وترامت الأخبار إلى كسلا ومنصوع ودخل كل القبائل في طاعته ، ثم غادر عثمان ومن التف حوله من

الأنصار هندوب واستعدوا للحرب ضد الحكومة ومن هندوب توجهوا
إلى سواكن .

ذكر واقعة سنكات

وهي أول واقعة في السودان

ولما عسكر عثمان في سنكات أصدرت الحكومة أوامرها إلى محافظ
سواكن بالقبض عليه ، وتفريق جموعه فانتدب توفيق مأمور توكر وستين
جندياً وأرسلهم للقبض عليه ، وما كاد توفيق — الذي خانه التوفيق —
يصل إلى سنكات حتى أحاط به عثمان ومن معه من كل جانب فتحصن
هو وجنوده داخل زريبة من الشوك وأحاط بهم الأنصار إحاطة السوار
بالمعصم ودارت رحى الحرب ، وكان جيش الحكومة على استعداد كامل
ومستमित فحضر مدافعة بثبات ، وكان الأنصار في غاية الشجاعة فلم يصددهم
ضرب المدافع فدخلوا على توفيق ومن معه الزريبة واختلطوا بهم اختلاط
اللبن بالماء فاختلف نظامهم واستعمل الأنصار فيهم السيوف القاطعة والرماح
الطويلة فأبادوهم عن آخرهم بعد ما قتلوا من الأنصار عدداً كثيراً .

حملة محمود طاهر

لما قررت الحكومة ترك السودان وإخلاء عهده إلى محمود طاهر
قيادة خمسة آلاف من الجنود لإنقاذ توكر وسنكات ، فقامت الحملة من

سواء أكن إلى ترنكيتات بحراً ثم سارت برأ من ترنكيتات قاصدة توكر
وكان عثمان على علم بها ولم يكن لها بها به علم فحشد لها جيشاً جراراً يزيد عدده
على خمسين ألف مقاتل كلهم في غاية الشجاعة وكن بهم في منتصف الطريق
بين توكر وترنكيتات ولم تقطع الحملة مسافة كثيرة حتى خرج عليها السكين
من كل صوب فداهمها على غرة فدارت رضى الحرب وحمى الوطيس فاستعملت
الحملة المدافع فكان لها صوت هائل واستعمل الأنصار السيوف والرماح وهي
جل سلاحهم ، ولم يزالوا في عراق شديد والأنصار في تقوم والحملة في تأخر
إلى أن اختلطوا بهم وتعذر ضرب المدافع لعدم النظام فعولت على الفرار
وولت الأدبار ، واختلط الأنصار بها اختلاط الماء باللبن وكانت لهم جرأة
وشجاعة وبأيديهم سيوف قاطعة وهي بأيدي رجال على الوغى صابرة ، فلم
تر إلا رأساً طائراً وجباناً حائراً إلى أن مزقوا الحملة كل ممزق وتركوها
أشلاء للعقبان والرخم ، ولم ينبج من الحملة غير القائد وقليل من الجنود سلخوا
من الموت في ذلك الحين ، مع أن الحملة قتلت عدداً كثيراً من الأنصار
وقاومت بكل ما في وسعها ، ولكن الله لم يكتب لها النصر (وما النصر
إلا من عند الله العزيز الحكيم) .

حملة بيكر

ولما بلغ الحكومة هزيمة حملة محمود طاهر والفتك بجيشه انتدبت الحكومة
يسكر القومندان ومعه أربعة آلاف جندي ، وفي آخر المحرم سنة ١٣٠٠
هجرية استعرض الخديوي توفيق باشا جنود بيكر وأبدى سروره من حسن

نظامهم ، ثم غادر يسكر القاهرة قاصداً سواكن وبعد ما وصل سواكن أخذ
في الأهبة للزحف على توكر لإيقادها وإيقاد سنكات .

وفي ربيع الثاني سنة ١٣٠٠ أبحر يسكر بحملة من سواكن إلى ترنكيتات
ثم غادرها بحملته في طريق وعرة المسالك لتكاثر الغابات ، فكانت الحملة
سائرة على هيئة يولية تتقدمها المدافع وبجانها الفرسان .

هذا ما كان من أمر الحملة وأما ما كان من أمر عثمان ومن معه فإنهم
كانوا على علم كامل بالحملة فحكموا لها في الطريق ولم يكن لها بهم علم إلا أنها على
حذر شديد منهم ، وبينما الحملة سائرة لم تشعر إلا وهاجم عثمان وأنصاره
الشجعان مقدمتها واختلطوا بهم ورأوا أن السيوف أصدق أنباء من المدافع
في حالة القرب ، وحاول قائد الحملة تشكيل قاعة من المشاة ولكن إسراع عثمان
ورجاله في الهجوم وخفة حركاتهم وشدة أقدامهم حال دون ذلك ، فقامت
مدحى الحرب بين الفريقين على قدم وساق وضربت المدافع ذات الطلقات

ولم أرأت الحملة ثبات الأنصار وشجاعتهم ركزت إلى الفرار فمات فيها
السيوف والرماح وصار رجالها يرمون سلاحهم مرلين الأدبار ، ولم تزل
السيوف والرماح تعمل فيهم إلى أن قتل منهم ثلاثة آلاف ، وقتل من
الأنصار عدد كثير ، ونجا القائد ومعه عدد من الحملة بعد ما شاهدوا الموت
بالعيان فوصلوا إلى ترنكيتات وغنم عثمان كل الأسلحة والمدافع التي كان فيها
عدد من العيار الكبير .

على أن هذه الهزيمة جاءت تلو التي قبلها وبالأسباب عينها ، فكانت ضغتنا

على إبالة لما فقدته الحكومة من الرجال والسلاح وعدم توفيق قوادها لما فيه الفوز والنجاح .

واقعة الجزال جراهم في التيب

ولما فشلت حملة بيكر وهزمت شر هزيمة وشدت شملها وقتل أكثرها ، قررت الحكومة الإنجليزية إرسال قوة عسكرية لقمع عثمان وتشديد جيشه في أقرب وقت وفتح الطريق بين بربر وسواكن وعمدت بقيادة الجنود إلى جراهم ، فوصلت هذه القوة إلى سواكن في أواخر شهر ربيع الثاني سنة ١٣٠٠ هجرية : وبعد أيام أبحرت إلى ترنكيتات وأخذ جراهم بالحزم والحذر لئلا يحل به هو ومن معه ماحل بالحلين السابقين ، فساد بحملته وعدد مشاتها ثلاثة آلاف : وفرسانها ثمانمائة ونحو من أربعة من المهندسين والبلوحيمة وجعل الفرسان في جانبي المربع ، ثم سار من ترنكيتات قبل الظهر ورافق بيكر جراهم .

هذا ما كان من جراهم وأما ما كان من عثمان فإنه كان على علم كامل بالحملة فتحصن في التيب وحفر خندقاً أحاطه بالمناير ووضع عليه مدافع الكروب التي غنمها في الواقعتين السابقتين ولكنهم كانوا بلا مؤخرة مخفظم من الخلف فشجع ذلك جراهم فهاجمهم فقتلهم بالمقذوفات المواصلية التي لم تجاوبها قنابل جراهم وتشجعت الحملة في التقدم حتى صارت على بعد ميل من حصون الأنصار التي كانت نيران مدافعهم وقنابلهم شديدة عليها وأخذت نيران

مدافع الحملة وقنابلها تجاوب مقذوفات الأنصار واشتعلت النار بين الجانبين وامتلاً الجو من أصوات المدافع وثبت الشجاع وخاف الجبان . وكان أحد جوانب الحملة عرضة لمقذوفات الأنصار أكثر من غيره فأراد القائد إبدال شكل المربع بطريقة تصير الأضرار خفيفة ، فاغتنم الأنصار هذه الفرصة وزحفوا بخفة غريبة إلى أن اختلطوا بالحملة اختلاط الماء باللبن وصار القتال بالسيوف والرماح ويبد الأنصار سيوف قواطع تلعب ورماح طوال تحير الجبان ؛ فما يدرى أين يقع .

ولما رأى جراحهم وحملته ما حل بهم من سيوف الأنصار ورماحهم ولوا الأذبار راجعين بعد ما قتل من كلا الفريقين عدد وجرح بغير و انسحب عثمان راجعاً بعد إدارهم ، يقصد بذلك أن يغتز جراحهم فيتبعه فإذا توغل في الغابات أحاط به وفعل به ما فعل بالحملة قبله . ولكن جراحهم أدرك ذلك ففكر راجعاً راضياً من الغنيمة بالإياب .

محاصرة عثمان دقنة بسواكن

قلنا إن عثمان كان يقصد بالتقهقر التفرير لتبعية الحملة ، فلما أدرك قائدها الحملة وقفت راجعة إلى سواكن بسرعة ندم عثمان لفوات الفرصة حيث كان في إمكانه مهاجمتها في طريق توكر ، ثم زحف بجيوشه على سواكن وتحصن في مكان يدعى طمية وصار ترسل بعضاً من جيشه يهاجمون المدينة حتى يضطر الجيش الذي بها إلى الخروج إليهم واشتدت وطأتهم على المدينة .

ولما كثرت غارات الأنصار على سواكن حمل جنود الإنجليز على الأنصار وخرجوا من سواكن وتقمقر المغيرون أمامهم حتى بلغوا طمية وقصد الأنصار أن يبعدوهم ولو قليلا عن سواكن .

ولما تراءى الجمعان لزم الجنود خطة الدفاع وتحصنوا داخل زريبة من الشوك ، وعندما أقبل الليل بظلامه قام الأنصار وانقضوا على العدو ودارت الحرب رحاها واشتد ضرامها وحمى وطيسها ولم تزل قائمة على ساقها ، فالمدافع تضرب بمقدوفاتها إلى مطلع الفجر ، وكان الأنصار في ثبات وتقدم لأنهم رجال في الوعى شجعان عند اللقاء إلى أن اختلطوا بالجنود فولوا الأدبار والسيوف تعمل فيهم ، فلم تر إلا رؤسا بالحسام طائرا وجبانا حائرا ولم تزل مدافع الأنصار وسيوفهم ورماحهم تعمل إلى أن قتلوا من الجنود الإنجليزية في هذه المعركة نحو أربعة آلاف ولم ينج منهم إلا القليل رضوا من الغنيمة بالإياب وندموا على ملاقات الأنصار وقالوا لاقينا الأنصار فلاقينا رجالا وأى رجال لاقينا ، رجال لا يشق لهم غبار ولا يصطلى لهم بنار .

وقال كتبة الجرائد الإنجليزية في وصف هذه الواقعة وكانوا شاهديها أن الأنصار أشجع رجال في الدنيا وأشد الناس خبرة بفنون الحرب .

محاولة جراهم الوصول إلى بربر

وردت الأخبار إلى القاهرة ولندن وهى عاصمة إنجلترا بقطع الأسلاك التلغرافية بين الخرطوم والقاهرة ، فقررت الحكومة إرسال حملة جراهم

لفتح الطريق بين بربر وسواكن وأمرت جراهم بالحملة على عثمان وهزيمة
وتفريق جموعه واختراق الصحراء للوصول إلى بربر ، وكان ذلك منها
أمانى وأمانى والأحلام تضليل فهم لم تلاق ما لاقاه جراهم وحنوده ولم
تشاهد ما شاهدوه من عثمان وأنصاره ، وكان لعثمان جواسيس فى سواكن
يبلغونه الأخبار .

ولما سمع هذا الخبر سر به غاية السرور وعزم على عدم مقاومة الحملة
بالقرب من سواكن وإخلاء الطريق لها وعدم مناوشتها حتى تتوغل فى
الصحراء وهناك يحيط بها إحاطة السوار بالمعصم فيتمكن من إبادتها .

ولما خرج جراهم من سواكن قاصداً بربر على حسب أوامر الحكومة
كان هو ومن معه على حذر شديد وقلوبهم ممتلئة خوفاً من عثمان أنصاره
لأنهم رأوا سيوفهم ورماحهم وثباتهم وشجاعتهم فقطع جراهم وجيشه
مسيرة يوم من سواكن ، ثم تحقق عنده وعند جيشه أنهم إن تابعوا السير
كانت عاقبتهم له تختلف عن عاقبة من قبلهم ، فشاور قواده واتفقوا كلامهم
على العودة إلى سواكن قبل أن تلمأ ظروف تجعل السلامة فى خبر كان
فعاذوا ، ولما سمع عثمان بعودة جراهم أسرع إليه ليهاجمه قبل أن يدخل
سواكن ، ولكن جراهم أسرع فدخلها قبله .

ذكر مذبحور المهدى لعثمان دقنة والأنصار

الحمد لله الوالى الكريم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله مع التسليم
وبعد ، فمن العبد الفقير إلى الله محمد المهدى بن عبد الله إلى حبيبه وصفيه

وعونه ونائبه في إقامة دين الله ذي الرأفة بالضعفاء عباد الله المسلمين المنيين إلى الله والشدة على المتكبرين أعداء الله عثمان بن أبي بكر دقته وقاه الله كل محنة وجعله الله من أعلا أهل المكرمة .

حبيبي إن الدين قد انهدم بسبب الحظوظ النفسية السفلية التي تزول عن قريب وتحجب عن دوام النصيب . فشمّر أنت وإخوانك التابعون لنا عن مساعد الجد على ترك المشتبهات النفسية ومقاسات الشدائد التي تقرب إلى رب البرية فيدوم خيرها في الدار الآخوية والمعلوم أن الخير الذي لا يدوم خير منه الشر الذي لا يدوم ، لأن صاحب الخير الذي زال أشد الناس حسرة وتوجعا ، وصاحب الشر الذي زال أشد الناس فرحا وسرورا .

فلما علم العاقل المؤمن بما عند الله من عاقبة خيرا الله الدنيا زهدا لشؤمها عند الفوات وشدة حسرتها عند الممات مع أنها تشغل عما في الآخرة وتصرف عن القيام لله خالصا والوقوف بالله صادقا ، فأنبيوا لما عند الله واكتفوا بالله ولا تنتعموا في دار البلايا ودار الظالمين الأشقياء فتصرفوا بذلك عما أعد للمتقين ، واقتدوا بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في الإعراض عن الدنيا ومتاعها ، واصبروا على الجوع والخضوع لما عند الله بالقلب القنوع .

واعلموا أنه لو كان في الدنيا خير لصبه الله على عبده المؤمن ولأعطاه كل ما عند الكفار ، ولكن ليست هذه الدار محل العطاء ولا دار الجزاء ولا زمن السراء ، فاعرفوا ما خلقتهم له من الاكتساب منها إلى محل الاجتماع بالأحياء ودوام اللقاء .

فيا يا أحبائي ولا تتعطلوا بهذه الدار مع من تعطل بها لغروره بمحض
البلاء ، قال الله عز وجل : (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لتبلوهم أيهم
أحسن عملاً ، وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزا) .

خير الدنيا مؤد إلى الوقوع في الهوى الخلاء ، وانظروا ثواب ما فيها
من البلاء ، إذ قال الله تعالى : (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص
من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة
قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم وأولئك
هم المتهدون) .

فانظروا العطاء الذى فيه البلاء وهو الصلاة من الله مع الرحمة والهداية
إذا كان العبد راضياً أو صابراً على مراد الله ومعتقداً أولية الله له وشفقته
عليه فيحسن به الظن زيادة عما يحسنه في أبيه الشفيق عليه الذى يعلم
خبرته وقدرته وغناه ، فيعلم يقيناً أن أباه الموصوف بتلك الصفات لولا محض
الشفقة عليه وإرادة الخير له لا يقصده ولا يسقيه الدواء المر ، فكذلك
المؤمن بالله وبأولية الله يعلم أن عند الله خيراً لا يزنه السموات والأرض
وما فيهما ويعلم أنه قادر على إعلائه كل خير ويده خزان الخيرات .

ولكن المعلوم أن المريض إذا أعطاه أبواه لذيذ الأطعمة عجلت بموته .
وإن أباح له الملاعب والشهوات عن الحبس للتعليم كبر سفيها جاهلاً .

وكذلك حكمة الله في صرف النعم عن عبده وتنغيه عنها في الدنيا
من هذا القليل وأعلى علما في ضرره بالحاضر الذى يعقب حسرة طويلة ،
ولذلك فعل بأصفيائه ما فعل ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أشدكم

بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل) والأخبار في هذا المعنى كثيرة من الكتاب والسنة .

فانظروا ما قاله العبد من البلاء في قوله تعالى : (وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك المتهدون) فقوله : إنا لله وإنا إليه راجعون هو حسن الظن بآية معرفته به لكثرة أياديه ونعمه عليه واشتياقا إليه دون الشهوات لتسكون له قبل لقائه .

فالمعلوم أن من انتسب إلى ملك وأخلص في انتسابه له ، وعلم الملك أن له حقيقة ، عمل له كل إحسان ورفعته بكل درجة ، وإذا علم الملك أيضاً من قلب ذلك الشخص أنه إلى أبده مستعد من قلبه أنه لا يرجع إلى غيره أعد له ما يقدر عليه من حسن المأوى .

فكذلك العبد المؤمن لما يعلم أيادى الله عليه وأوليته له مع معرفته أنه قادر وغنى وخير يفرح بما يقضيه عليه قائلا : إنا لله ، يعنى نحن ملك الله وهو الأولى بنا منا ولما يعلم أنه لا مرجع له إلا إليه مع معرفة أياديه وعظمته وما أعد في الآخرة يشفق إليه فتمط ويصرف نظره عما يبطله قائلا : وإنا إليه راجعون ، فيثبته أنه بصلوات عليه فيصلى عليه كما صلى على أحبائه من الأنبياء والمرسلين والملائكة والمقربين ويرحمه الرحمة الخاصة التى تليق بعظمته ، وبما ظنه فى الله قد سلك طريق الله واللجنة فهداه الله إلى ذلك ، لأن الجزء من جنس العمل ومن جاهد بهديه الله كما قال تعالى : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) .

فلا تظنموا أحبابي في غير ربكم ولا تتشوقوا لغير دار الدوام مما يزول
ويعتقب حسرة تطول فتظنموا بيلاء الدنيا لحسن الظن بآته واعرضوا عن
متاع الدنيا الذي تعتب الشقاء وحثوا إخواننا الذين معكم بالحال والمقال
وكونوا كما قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة
إن الله مع الصابرين ، ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء
ولكن لا تشعرون) ووطنوا أنفسكم على الرضا بقوله تعالى : (ولنبلونكم
بشيء من الخرف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر
الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك
عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) لتناولوا بالرضا والصبر
على مراد الله تحسينا لظنكم بآته الصلوات والرحمة والهداية .

وإنه يا حبيبي بعد وصيتي هذه فليكن اعتمادكم على الله تعالى في كل أموركم
تصديقا وامتنالا لقوله تعالى : (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) فالتوكل
على الله كنز المؤمن .

وحيث أن مطمئح العبد نظره ربه وصل إليه وجازاه ومن اعتمد على
غير الله خذله في محل حاجته كما لا يخفى فلا تعتمدوا على الكثرة بل اجتهدوا
في الصفة التي هي الاعتماد على الله وحده وزهد الدنيا والتشوق إلى ما عند
الله في دار البقاء فالذي عندهم ينفذ وما عند الله باق فإن الكثرة بغير الله
خذلان فحكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين
ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز فاعتمدوا على الله واكتفوا به
واشتاقوا إلى الذي عنده والسلام .

تولية غردون حاكماً عاماً على الخرطوم

وخطابه للمهدى قبل أن يصل إليها

عرضت الحكومة البريطانية على الخديو تعيين غردون حاكماً عاماً على السودان ومنحه سلطة مطلقة وكان هذا العرض في صفر سنة ١٣٠١ هجرية فقبل الخديوى هذا العرض وفي يوم ٢٦ ربيع الأول سنة ١٣٠١ هجرية كان وصول غردون إلى القاهرة في يوم ٢٨ من ربيع الأول سنة ١٣٠١ هجرية أعد قطار خصوصى فى محطة بولاق ليحمل غردون ومن معه إلى أسيوط وازدحمت المحطة بالمدعوين ولم يكن مع غردون جيش فاتصل به عبد القادر حلمى وقال له إنى أتوقع لك فشلاً ما دمت قاصداً إلى السودان بلاجنود وفى الساعة العاشرة سافر القطار إلى أسيوط ووصلها فى الغد ثم ركب باخرة فى النيل إلى أسوان ، ثم غادرها إلى الشلال ثم ركب هو ومن معه باخرة إلى كورسكو وبعد يومين وصلوها وقبل أن يغادرها كتب خطاباً إلى المهدى وبعث معه هدية من نوع الهدايا التى تقدم لمشايخ الأعراب وفى خطابه يقول للمهدى إننى أعترف بك سلطاناً على السودان الغربى كله وملكاً على كل أقاليمه التى هى كردفان ودارفور وإننى لما بلغنى ما أصاب أهالى السودان من سفك الدماء وتوالى الحروب خامرني غم شديد ، ولذا عيئتني ملكة بريطانيا والخديوى ملك مصر على السودان لأكون فيه حاكماً عاماً وإننى من صميم قلبى أرغب فى توثيق عرى الصداقة الودية بينى وبين سلطتكم وقد داخلني حزن شديد لما علمت بقطع طرق السودان الشرقى الذى جاءت

حائلة بين المسلمين وبين مكة المكرمة التي يقصدونها كل عام لأداة فريضة الحج وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيها بنا لفتح الطريق وإلقاء السلاح وتوطيد دعائم السلام .

وأرسل برقية إلى الحكمدارية بالخرطوم يأمرها باستقبال سفير المهدى بالحفاوة والتكريم إن جاء قبله ثم غادر كروسكو وبعد أيام وصل إلى أبو حمد هو ومن معه وهي أول حدود مقاطعة بربر من جهة الشمال وأول حدود دنقلة من الجنوب وسكانها الرباط والمناصير وهما من قبيلة الجعليين وهي بلاد حجرية قاحلة وأغلب أقوات أهلها ترد إليهم من الشمال والجنوب واستقبل غردون في أبو حمد حسن مدير بربر ومعه أعيان المديرية فألقى عليهم غردون خطبة قال فيها : إنه تجاوز للأهالي عن المناخرات من الضريبة لغاية سنة ١٨٨٢ ميلادية كما أنه تجاوز عن ضريبة ثلاث سنوات في المستقبل وأنه ألغى الأوامر الصادرة بمنع تجارة الرقيق فقال له أحد مشايخ الأعراب إنك أعفيتنا من هذه الضرائب ولكن لا نأمن أن يخلفك حاكم غيرك فيعود إلى جبايتها ما دامت أسماءنا في الدفاتر فقال له صدقت وسنأمر بحرق الدفاتر وفي الغد سافر إلى بربر وبعد أيام وصلها وتقابل مع رجال الحكومة وأعيان البلد وتشاور معهم في أمر المهدى فقالوا إن المهدى انتشرت شوكرته وخضع له السودان الغربي كله وله أتباع وأنصار في كل أنحاء السودان ، وعنده أسلحة كثيرة غنمها من الحكومة . وحيث أنك لم تأت بجيش جرار فأموريك لاشك فاشته . وبعد ثلاثة أيام غادر بربر قاصدا الخرطوم .

وصول غردون إلى الخرطوم

عندما وصل غردون في الباخرة هو ومن معه إلى المقرن وهو اجتماع النيلين الأبيض والأسود قابلته الخاصة العسكرية ثم تفقد الحصون فسر من قوتها وأثنى على العساكر وشجعهم ثم توجه إلى الخرطوم وهناك وجد الجنود صفوفا والأهلين محتشدين وكانوا يظنون أن معه جيشا على ما يرام يستطيع أن يدافع به المهدى عن الخرطوم ولكن بالخيبة الأمل بينما الناس ينظرون خروج الجيش من الباخرة وإذا بها يخرج منها غردون وإبراهيم فوزي والكيلولونيل ستيوارت وجميع من في الباخرة نحو عشرون فاندھش الناس وقالوا أمن هؤلاء الثلاثة يخاف المهدى ويترك التقدم إلى الخرطوم هذا شيء بعيد .

ولما وصل غردون إلى قصر الحكمندارية دفع فرمان توليته إلى الشيخ حسن المجدى رئيس المدرسة الأميرية فصعد على منبر الخطابة وقرأ فرمان بصوب مرتفع والناس منصتون لاستماعه ، وهو يا أهالى السودان عموماً إن الجانب العالى الخديوى يسلم عليكم صغيراً وكبيراً أحراراً وعبيداً إنائاً وذكروراً .

وكذلك الملكة فكتوريا ملكة بريطانيا وإنكم لا تجهلون شفقتى عليكم ومحبتى لكم وقد ساءنى ما سمعته عنكم ، حيث نشبت الحرب بينكم وتعطلت تجارتكم وسفكت دماؤكم ومنعتم من تأدية فريضة الحج التى هى من أركان الإسلام وزيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم وقد ساء هذا الحال كلا من المملكة

والخديوى فانتدبت من قبل حكومة المملكة لآكون والياً على السودان وقد صار فصل السودان عن مصر فصلاً تاماً وفوض إلى الحكم المطلق وقد خارت السيد محمد أحمد المهدي بفحوى مأموريته واعترفت له بالسلطة المطلقة على السودان الغربى برئاسته على شرط أن لا يمد يده لغيره . هذا وقد أقيمت الأوامر الصادرة بمنع تجارة الرقيق وتجاوزت عن جميع المتأخرات من الضرائب لغاية سنة ١٨٨٢ ميلادية . وقد تجاوزت عن ضرائب ثلاث سنوات مستقبلاً وأمرت بإحراق دفاتر المتأخرات وأمرت بإطلاق جميع المسجونين وعزمت أن لا يكون أعضاء حكومتى إلا من الوطنيين . حيث أنى أود تشكيل حكومة وطنية ليحكم السودان نفسه بنفسه ولى الأمل بأن العلاقة ستصبح بينى وبين سلطان الغرب وثيقة العرى ومنى عليكم السلام .

وكان أهل الخرطوم يسمعون هذه الخطبة ودموعهم تنهمر من أعينهم حيث كانوا موقنين بأن هذه سياسة خرقاء . وأن المهدي سوف يتقدم بجيوشه فيحتل البلد عن قريب مادام غردون لم يأت بجيش .

ثم دخل عليه بعض العلماء . وقالوا له إن المهدي لا يلتفت إلى شيء مما تقول ولا يرده عن احتلال الخرطوم غير جيش جرار وأن من حولنا وكثير من أهل القطر متحفزون للقيام معه ولنصرته وسيأتيك منه الرد فتعلم أن الحقيقة هي ما أخبرناك به .

رد المهدي على غردون بخطابين

الأول

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد .

فمن العبد الفقير إلى الله محمد المهدي بن عبد الله إلى عزيز بريطانيا والحديرية غردون وصلنا جوابك وفهمنا ما فيه وأنت تزعم إرادة إصلاح المسلمين وفتح الطريق لزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام واتصال المودة بيننا وبينكم وحال المسيحيين والمسلمين وأن تجعلني سلطانا على كردفان فأقول والأمر لله إني دعوت العباد إلى صلاحهم وما يقربهم من ربهم وأن يفرغوا من الدنيا الفانية إلى دار البقاء ويعملون ما يصلحهم في آخرتهم وقد كتبنا إلى حكامدار الخرطوم وأنا بننا بدعوته إلى الحق وبأني لست أريد ملكا ولا جاها ولا مالا وإنما أنا عبد أحب المسكنة والمساكين وأكره الفخر وتعزير السلاطين ونبذهم عن الحق المبين لما جيلوا عليه من حب الجاه والمال والبنين وهذا هو الذي صدم عن صلاحهم وأخذ نصيبهم من ربهم فأخذوا الفاني وتركوا الباقي واشتغلوا بما لا يكون من الفانيات ولم يسمعوا قول الله ولا رسوله ولم يذكروا خبر القرون الذين لم يغب عنهم من ذلك شيئا وندموا على قدر الذي تمتعوا به فأيدنى الله لدلائلهم على الله تعالى وليتركوا العز الفاني والنعيم الفاني إلى العز الدائم الأبدي في دار النعيم المقيم ولأعرفهم غرور من يريد العاجلة ويظن أنه ساع في رضى الله ويكون له نصيب في الآخرة .

وقد قال المسيح عليه الصلاة والسلام يا معشر الجواريين ابنوا على موج البحر داراً تلکم الدنيا فلا تتخذوها قراراً ، ومن ظن أنه يخوض البحر من غير بلل فهو مغرور فكذلك من ظن أنه يجمع الدنيا ويريد عزها وجاهاها ويكون له في الآخرة شأن . فأنب إلى الله الباقي وأخضع لجلاله وأطلب عز الآخرة . ولا تظن أن هذه الدنيا دار حتى تسعى لملها وعزها وكيف من يكون على خلاف طريق النبي صلى الله عليه وسلم يفتح عليه زيارة قبره ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم عن يرغب زيارة الكلاب ، كما ورد أن الدنيا جيفة وطلابها كلاب .

وكيف يرغب فيمن عبد غير الله ونسى الله وأعرض عن كلامه وطلب متاع الحياة الفانية . فإن كنت شقيقاً على المسلمين فبالأولى أشفق على نفسك وخلصها من سخط خالقها وقربها على اتباع الحق باتباع سيد الخلق سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أحصى ما اندرس من ملل الأنبياء والمرسلين وإن مصداقاً لما بين يديه من الكتب .

فجميع الأنبياء عليهم السلام لو حضروه لما سلكوا غير ملته ولكنهم يتمنون أن يكونوا من أمته ومن حضر بعثته ومن بعدهم لا يقبل منه دين غير دينه فظهر نفسه أولاً بالدخول في ملته ثم أشفق على أمته بسلوك سنته فعند هذا تكون الشفيع ومن غير هذا فإلك من المحقين رفيق كيف وقد قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منهم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين) إلى أن قال (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة

ويؤتون الزكاة وهم راكعون ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فإن
حزب الله هم الغالبون) وإنما قد امتثلنا أمر الله فلا نتخذ ولياً إلا الله ورسوله
والمؤمنين وعلى ذلك قد وعد الله بالغلبة كما سمعته من قول الله هذا حيث أن
الله يقول هم الغالبون فلا غلبة لغيرهم فإن رجعت عما أنت عليه من ملة غير
الإسلام وأبنت إلى الله ورسوله واخترت الآخرة تتخذك ولياً وتكون
من إخواننا ونسكون المدة المطلوبة عند الله ورسوله وتكون ممن امتثل
أمر الله بعد هذه الآيات فاستحق الوعد والبشارة في قوله تعالى (ولو أن أهل
الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ولو أنهم
أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن
تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون) .

فبعد هذا تتصل الصلحة والمودة فيما بيننا وبينك وتكون من عمل
بالقرآن والتوراة والإنجيل وتكون قد اتبعت باتباع سيدنا محمد صلى الله
عليه وسلم عيسى وجميع الرسل وحزب الخير الأبدى إلا حيث علمت أن
حزب الله الذين وليهم الله ورسوله والذين آمنوا هم الغالبون من كلام الله
فاعلم أن حزب الله واصل إليك ومزيل لك عما شاركت به خالقك فادعيت
ملك عباده وأرضه مع أن الأرض لله يورثها عباده الصالحين وأما المسلمون
والمسيحيون الذين دعوت إلى إملاقهم إليك فأنا أريد لهم الصلاح والنفع
عند الله وفي دار الأبد كما أريده لك ولكافة عباد الله فلا أبعدهم من جنتهم
إلى محبتهم فإن الله قد أيدني رحمة للعباد لأنقذهم من الهلاك الذي هم واقعون
فيه لولا رحمة الله بظهوري فيهم واعلم أني خليفة رسول الله صلى الله عليه

وسلم فلا حاجة لي بالسلطنة وبملك كركطان ولا غيرها ولا في مال الدنيا ولا زخرفها وإنما أنا عبد الله دال على الله وإلى ما عنده فمن كان سعيداً أجابني واتبعتني ومن كان شقيماً أعرض عن دلائلي فأزاله الله عن موضعه وأذله وعذبه عذاب الأبدي وقد أبدى الله فلا تغتر فتهلك كما هلك إخوانك .

فافهم وسلم تسلم وأما الهدية التي أرسلت إلينا فعلى حسب نية الخير جزاك الله خيراً وهداك إلى الصواب واعلم أنه كما أكتب لك أفلا ترغب في متاع الحياة الدنيا وزينتها وإنما هي قصد المترفين الذين لم يكن لهم عند الله نصيب فها هي مرسولة إليك مع ما نرغبه من اللبس لأنفسنا وأصحابنا الذين يريدون الآخرة ويرغبون فيما عند الله من الخير الباقي الأبدي ليستحقوا بذلك نعم الأبدي وملك الدوام كما درج على ذلك الأنبياء والمرسلون وجميع السعداء من عباد الله الصالحين وتعلم ذلك أنت حقيقة من سيرة عيسى عليه السلام وحواريه وهو القائل كتبت لاسم الدنيا فلا تمسوها بعدى فتعلم بذلك أن من خالفه من الأحرار والرهبان وجميع من يدعى أتباعه ليسوا بحقيقين وإنما غرتهم الحياة الفانية والامتنعة الزائلة إلى أن تكون جيفة وعذرة ثم عندما محضاً فتكون حسرة ونداماً فراقها لما فوته من اكتساب خيرات الدوام ثم إن مثل هديتك عندنا كثير ولكن أعراضنا عنه طلباً لما عند الله ونقول في ذلك كما قال الله من قول سليمان بلقيس وقومها (أتمدوني بما قال فما أناني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع إليهم فقلنا بينهم يحنود لأقبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون واعلم أنك إذا أتيتنا نريك ونريك من النور ما يظلمن به قلبك ونزيلي به ظمئك في الدنيا وما فيها ثم

ذلك إن رأينا فيك خيراً وصلاً للسلتين ولينا كما فعلنا بمحمد خالده
 المشهور بزل مديراً سابقاً فإنه لما أتانا ورأى الحق فرح بنا غاية الفرح وندم
 على ما فات مما ضيعه من عمره في الفاني واطمأن بانه واختار الآخرة ووثق
 بالله ولبناء دارفور وقد كتب لنا قبل ذلك سلاطين بالتقسيم فأكرمناه
 وإلى الآن نريد كمال تربيته وهو الآن في خير كثير وبعد هذا البيان فإن
 اهتديت وسلت لي واتبعني حزت شرف الدنيا والآخرة وفزت بأجرك
 وبأجر جميع من اتبعك وإلا هلكت فكان عليك إثمك وإثم جميع من
 اتبعك والسلام . جماد أول سنة ١٣٠١ هجرية الخطاب الثاني بسم الله الرحمن
 الرحيم الحمد لله الولي الكريم الصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد
 فمن عبد ربه الفقير إلى الله محمد المهدي بن عبد الله إلى غردون بإعلاكم على
 ما تدون بالجواب إليك تعلم باطنه وبه كسوة الزهاد أهل السعادة الكبرى
 الذين لا يبالون بما فات من المشتبهات طلباً لعالى الدرجات وهى جبة ورداء
 وسراويل وعمامة وطاقيّة وحزام وسبحة فإن أنبت إل الله وطلبت ما عنده
 فلا يصعب عليك أن تأبى ذلك وتوجه لدائم حظك وما هو الرسول الذى
 أتى منك واصل إليك مع رسل من عندنا لما طلبت والسلام فقدم على غردون
 رسولان مع رسوله يحملان السكتب والهدية وهى الجنة وما معها وللشكل
 من البهور وهى من أردأ ما يأبى ولما وصل الرسولان إلى الخرطوم
 شراً سيفيهما فأمرهما ضابط باب الحصن بإغمادهما فلم يطيعا وأمر
 غردون بالمحافظة عليهما إلى أن يصلا عنده ولما دخلا على غردون قال له
 السلام على من اتبع الهدى وسلبا السكتب والهدية ولما نظر الهدية غضب

وضربها برجله ثم اطلع على الكتب ورد للمهدى خطابا مع رسوليته يقول فيه للمهدى. إننى أدعوك إلى السلم وأنت تدعوني إلى الحرب وأدعوني إلى حقن الدماء وأنت لا تبذل إلى سفكها فأقول لك لا بد من قهرك وكبح جماح طغيانك ومهما يكن عندك من الجوع فلا بد أن ترضخ صاغرا أو تهلك حيال قوتي الحكومة الخديوية والإنجليزية .

ذكر زحف المهدي من الأبيض إلى الدهر

ومنه إلى الخرطوم

لما تحقق المهدي أن دعوته قد انتشرت في أكثر أنحاء السودان وأن نفوذ الحكومة قد تقلص ولم يبق في السودان غير الخرطوم وسنار وكسلا وكلها محاصرة بجنوده جمع إليه أهل فشودة في الزحف على الخرطوم وهو الرأي عنده ؛ فكلهم وافقوه .

وفي أوائل جمادى الآخرة سنة ١٣٠١ هجرية خطب في الناس بما عزم عليه وغادر الأبيض إلى الدهر وهو على مرحلتين شرق ، ثم نزل بالدهر وأنشأ منازل لسكناه وتابع الناس المسير خلفه ، فصار ما بين الأبيض والدهر كمدينة أهلة بالسكان لكثرة من يسير في الطريق بينهما ، واستخلف المهدي على الأبيض عمه محمود ، وعسكر المهدي في الدهر ووفد عليه كثير من أهالي الجزيرة لتقديم الطاعة له فكان يقابلهم بالإكرام ويحشهم على العودة إلى بلادهم وعلى الجهاد .

وفي رمضان سنة ١٣٠١ أعلن المهدي أنه سيعتكمف العشرة الأواخر من رمضان ، وفي يوم العيد خرج من معتكفه إلى المصلى فصلى بالناس

صلاة العيد ثم خطب فحث الناس على الجهاد وأخبرهم بأنه سيتقدم إلى الخرطوم وأنه سيفتحها بعون الله إن شاء الله ، ومن ذلك اليوم زحفت جيوشه كسيل العرم نحو الخرطوم وسار هو حتى قطع القلعة التي بين كردفان والنيل الأبيض ، ثم عسكر في قرية شاة وهي على مسيرة ثمان مراحل من الخرطوم ، وكانت جيوشه زهاء ستمائة ألف ما بين راكب وماش وكلهم رجال حرب .

وفي أوائل افتتاح المحرم سنة ١٣٠٢ هجرية أرسل المهدي منشورات إلى اتباعه يبرهنهم بأنه سيفتح الخرطوم في هذه السنة إن شاء الله ، لأنه عدد جملة (نصر من الله وفتح قريب) بالجل الكبيرة تبلغ ألفاً وثلاثمائة واثنين ، ثم توجه لفتح الخرطوم .

ولما اقترب من أم درمان وضع معسكره العام عند مكان اسمه (الفتيح) وأرسل جاسوساً يحمل ألف نسخة يدعو فيها أهل الخرطوم إلى التسليم ، فوزع الجاسوس الكتب وألقى بعضها في المنازل والطرق ثم رجع وها هي صورة ما كتب في الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الوالي الكريم ، والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد . فمن العبد المفتقر إلى الله محمد المهدي بن عبد الله إلى كافة أهالي الخرطوم هداهم الله إلى الصواب ، نعرفكم أن الله غني عن العباد يهدي من يشاء إلى طريق الرشاد ويضل من يشاء (ومن يهد الله فهو المهتدي ومن يضل فلن تجد له وليا مرشدا) ، وقد طال ما تكررت منا النصائح وأردنا نجاة عباد الله وسلوكهم طريق الله ، فأنا ب إلى الله من أراد الله سعادته وخالف من خذله الله فأصمه وأعمى بصره .

فلا أدري ما الداعي إلى عدم الانقياد ! أو لله شركاء ؟ أم إله منازع في إرادته ؟ كلا ! بل هو القادر الفاعل لما يشاء ، فيجب على كل ذى بصيرة الوقوف معه على حد الأدب ولا يلتفت إلى غير لا وجود له من نفسه وأن يسلم الأمر لله الذى بيده التقلبات وإليه المصير .

ومن المعلوم أنى عبد دال على الله فمن اتبعنى فقد حاز السعادة الكبرى ومن خالفنى سيذيقه الله عذاب الخزي فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى ، وقد أظهرنى الله رحمة للمؤمنين ونقمة على المالكدين المكذبين ، وقد ظالما ذكرتكم بالله ورغبتكم فيما عنده وحذرتكم من وعيده فإلى متى الغفلة والتسويق ، وإلى متى مبارزة مولاكم بالعداوة ، ألم يأن لىكم أن تميل قلوبكم الى ما ينفعكم فى آخرتكم ويحلب لىكم الخير ويصرف عنكم الشر والضير ، أترغبون النجدة والفرج عند الإنجليز وتصرفون نظركم عن خالكم الذى بيده أموركم وقوامكم وهو القوى العزيز .

فما الإنجليز وأضعافهم مضاعفة بشىء فى جنب قدرة الله التى يعجز عن وصف كنهها كل لبيب ونجيب ، وما الغوث الا من عند الله القريب المحيب وحيث فهمتم ما ذكر فإنى لا أؤاخذكم على ما فات منكم ولا (تثرىب عليكم اليوم يغفر الله لىكم وهو أرحم الراحمين) ، (وأنبيوا الى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتىكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون) وعليكم أمان الله وأمان رسوله وأمان العبد ، وليس عليكم حرج فيما مضى ، وغايته أن من سلم سلم ومن خالف عطب وندم .

فيا هيأتم هيا الى طريق الفلاح والنجاح قبل قص الجناح ولا تخشوا

من شيء يحصل عليكم فإننا نأظرون فيكم قوله تعالى : (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم) .

وفي منتصف المحرم سنة ١٣٠٢ هـ هجم المهدي بجيشه على نقطة أم درمان فقابلته جنود الحكومة بنيران حامية ، ودارت الحرب رحاها واشتد ضرامها فقتل من كلا الطرفين عدد ، وكان للحكومة في هذا المحل خندقين فأخذهما المهدي ، رشاد نحو عشرين طابية على ضفة النيل الأبيض وضع عليها المدافع وكانت مقذوفات تلك المدافع تقع في الخرطوم ، ومكث المهدي محاصرا أم درمان الى أواخر ربيع الأول سنة ١٣٠٢ هجرية .

ذكر المجاعة في الخرطوم

في أثناء حصار المهدي للخرطوم تفشت المجاعة في الخرطوم حتى أن كثيرا من الناس صار لا قوت لهم غير ورق اللوبيا ، وصور قوت جيش الحكومة الصمق مخلوط بجوار النخل ، ومن غريب ما حصل في حصار الخرطوم أن الصيادين للسماك قبل الحصار كانوا يصطادون في اليوم الكثير منه ، ولما بدأ الحصار انقطع وجود السمك كأنها فرت من صوت المدافع وكما أن الأسماك هجرت شواطئ الخرطوم فإن بساتين المدينة كانت تقوم بحاجة السكان .

وفي أيام الحصار تلفت المزارع فلم تنبت وذهبت أشجار الفاكهة ، وكان

أسعار القوت في المدينة حتى سقوطها ثلاثون ريالاً ثمن السكيلة من الذرة ،
 وخمس ريالات ثمن الأفة من لحم البقر ، ولشدة المجاعة اختل نظام جنود
الحكومة لما أصابهم من الجوع ولحق كثير منهم بالمهدى .

ذكر سقوط أم درمان

في أواخر ربيع الأول سنة ١٣٠٢ هجرية فقدت حامية أم درمان القوت .
 واشتد الحصار عليها ، وفي يوم ٢٧ من ربيع الأول قدم اليها غوردون .
 ومكث معها ساعات يتبادلون الرأي ، وعلم منها أنها فقدت القوت منذ ثلاثة
أسابيع ، فسأل قائدها فرج الله عما إذا كان قادراً على الخروج من الخندق
واللحاق بثلاث بواخر استقر الرأي على انقاضها له في الغد فأجاب بأنه قادر
على ذلك . ثم إن جنوده فر منهم ثلاثة ولحقوا بالمهدى وأخبروه بأن الحامية
ستأتيها البواخر في صبيحة غد وتحملها الى الخرطوم فأوصى قواته بالتيقظ لها
فوضعوا لها كمينين بين النهر والخندق .

وفي صبيحة الغد وصلت البواخر الى شاطئ أم درمان وخرجت الحملة
من الخندق ، فخرج عليها الكمينان على غرة ووضعوا فيها السيف حتى
اضطرت الى الرجوع الى الخندق بعد ما قتل منها نحو مائتين ، ثم أمر
غردون قائدها فرج الله بأن يسلم نفسه هو ومن معه من الجنود الى المهدى ،
فكتب القائد الى المهدى كتاباً يسأله فيه الأمان له ولمن معه ، فأجاب المهدى
بأنه هو ومن معه لهم الأمان .

وفي اليوم الأخير من ربيع الأول سنة ١٣٠٢ هجرية الذي ضرب أجلاً

للتسليم ركب المهدي في عدد كبير من فرسانه حتى دفنوا من الخندق وخرج القائد ومن معه من الجنود . وتقدم القائد نحو المهدي فترجل المهدي عن جواده وجلس الكل على الأرض وقدم للقائد ومن معه شرباً من العسل فشرّبوا . وعين فرج الله قائداً من قواده وضمه الى حمدان أبو عبيدة . وفرج الله هذا هو الذي قتل بعد ذلك ملك الحبشة يوحنا يوم وقعة القنابات بين الأنصار والحبشة . وكان النصر فيها للأنصار على الحبشة .

وكانت المكاتبة مدة الحصار دائرة بين المهدي وغردون فعرض المهدي على غردون أشياء منها : اما أن يسلم . واما أن يسمح له هو ومن معه من المصريين والنصارى بالنزوح الى مصر وسفارة الخرطوم بشرط أن لا يحملوا معهم الا ما خف وأن يدفعوا أجرة الجمل التي تحملهم الى حدود مصر وكان غردون يرسل الى المهدي الكتب تباعاً في بعضها الاستهزاء وفي بعضها يقول ان حكومة المماليكة تفديه منه بعشرين ألف جنيه فرد عليه المهدي بأنه يسمح له بالذهاب بدون شيء .

ذكر سقوط الخرطوم وقتل غوردون

في صبيحة يوم الأحد ٨ من ربيع الثاني سنة ١٣٠٢ هجرية خرج المهدي من بيته يحمل مقطفاً من الخوص مملوءاً من الرمل وتبعه الناس حتى انتهى الى ضفة النهر فأحاط به الناس وهو لا يكلم أحداً منهم وأخذ يقبض من الرمل بيده ويقذفه في النهر ويرفع صوته قائلاً الله أكبر على الخرطوم فيجأوبه من حوله بمثل مقالته حتى فرغ ما في المقطف من الرمل ثم التفت

إلى من حوله وقال لهم إن سقوط الخرطوم على يده آن وقته ثم ركب زورقا واجتاز النهر إلى الضفة الشرقية وقصد معسكر القائد بن النجوم وبعد صلاة العصر ركب جملا واحتشد الناس حوله فأثنى على بن النجوم ثم أمر بأن تقسم المقاتلة على ثلاث فرق قلب وجناحين ويكون ابن النجوم في القلب ومعه الفرسان ، ويكون قائد الميمنة محمد أبو فرجة ومعه حملة البنادق وقائد الميسرة محمد نوبا وهو شيخ قبيلة بني جرار ومعه المسلحون بالسيوف والرماح وأن يكون هجوم القلب على النقطة الوسطى من الخندق وهى مقر فرج الزين قائد الحامية وهجوم الميمنة على الخندق الذى يلى النيل الأزرق جهة برى وهجوم الميسر على الخندق مما يلى النيل الأبيض .

وخطب المهدي في الجيش قائلا لا يتعرض أحد منكم بسوء على غردون بل حافظوا عليه أشد المحافظة حتى توصلوه إلى سالماً لم يصبه مكروه فأني أريد أن أؤدى به أحمد عرابى باشا المعتقل بسبب الثورة التى أقامها فى مصر ضد الإنجليز . ثم خطب فيهم يحثهم على الجهاد ويذكرهم بنعيم الجنان وما أعدّه الله للمجاهدين فى سبيله .

ثم قفل راجماً ومعه الخليفة التعايشى وأمر المهدي حمدان أبو عنيحة قائد جيشه فى أم درمان بإطلاق القنابل تباعاً على الخرطوم من عصر يوم الأحد ٨ ربيع الثانى إلى ظهر يوم الإثنين ٩ منه .

هذا ما كان من أمر المهدي . وأما ما كان من حالة المدينة والحامية وهى جيش الحكومة فقد أصبحت يوم الأحد وجو المدينة متلبد بالغيوم والشمس محجوبة عن العيون والبرد شديد وهذا مخالف لهواء البلاد وتزايد البرد على

جنود الحكومة وتركهم كأنهم صرعى في مواقفهم على الخندق ولم يتيسر لهم طعام ساخن يخفف عنهم الجوع والبرد وينعشهم -

وفي منتصف النهار ذهب غردون إلى الخندق ليتفقدته وينظر حالة الجيش وكان يشجع الجنود ويحثهم على المقاومة والثبات فلم يصنع أحد لما يقوله وكان كمن يصرخ في برية أو يطلب الماء من جنوة إذ العساكر كما قلنا لا حراك بهم ولا قوة ولا حماس ولا جلد عندهم فقوام انهارت لما بها من الجوع وشجاعتهم ذهبت لفقدهم الطعام والجوع هو جند الله العظيم ، فعاد غردون إلى منزله وقد أخذ منه اليأس كل مأخذ -

ولدى عودته اجتمع عنده قناصل الدول ، وكان الليل قد أقبل ولا تزال السماء متلبدة بغيوم حجب نور القمر ، فقال غردون للقناصل قد رأيتم تجمع العدو ، وإننى بتفقدى للجيش وجدت الجنود قد فقدوا كل قوة وشجاعة يقدرون بها على حراسة الاستحكامات فى هذه الليلة المشؤمة وإننى موقن بسقوط المدينة قبل طلوع الفجر ، ثم هموا بالانصراف فودعهم ، وكان يحنى رأسه ويحرك شفتيه ، وكأنه يقول : هذا آخر العهد بكم ، ثم دخل الأنصار المدينة فى هذه الليلة ولم يلقوا أى مقاومة تذكر ، ووصلوا إلى منزل غردون عند طلوع الفجر وأحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم ، وكان الذى قصد منزل غردون القائد محمد نوبار ومعه زهاء مائة ألف مقاتل فأطل غردون من النافذة ونظر إليهم ثم قال لحراسه لا تبدو معارضة لآى أحد يريد الوصول إلى . وإياكم أن تبدوا أقل دفاع ، ثم تقلد كسوته التشريفية الصغرى ووضع عليه رداء حريريا كوفيا وربطه بحقال كزى الأعراب فدخل عليه

محمد نوبار وبعض مقاتلته فوجدوه جالسا على كرسي ممسكا بيده منديلا أبيض فابتدوه أحد الأنصار وقال : أين أموالك يا غردون ؟ فبديهم تسكفاً وقال : أين محمد أحمد المهدي ؟ فابتدوه الرجل بطعنة في صدره خر منها صريعا يتخبط في دمه ، وصاح أحد الحاضرين على الطاعن لا تقتله فإن المهدي أمر بعدم قتله فأجابه محمد نوبار بأن الخليفة عبد الله التعايشي أمر بقتله وقال إن قتله خير من استبقائه ، ثم سحبوه إلى قاعة القصر ، وكان به رمق فمطعوا رأسه ، ثم بعثوه إلى المهدي .

ولما وصل رأس غردون إلى المهدي استنكر قتله وصاح ، لم تقتلوه ؟ ألم أنكم عن قتله ؟ وبدت عليه علامات الغضب وأسرع بالقيام ودخل منزله وغنم المهدي من السلاح مدفعا كروب وثلاث مدافع متليوز وعشرون مدفعا جبلي وستة آلاف بندقية رامنجتون جيدة وأربعة آلاف بندقية من هذا النوع بها خلل ، وعدد لا يدخل تحت الحصر من البنادق ذات الطلقتين ومن نوع آخر قديم . وأما الذخيرة فعشرون قنبلة لمدافع الكروب وثمانمائة ألف برميل مملوءة من البارود وغير ذلك .

وفي يوم الجمعة الموافق ١٣ من ربيع الثاني سنة ١٣٠٢ هجرية ركب المهدي وقواد الباخرة إسماعيلية فاجنازوا بها النهر إلى الخرطوم ، ثم قصد المهدي المسجد فصلى فيه بالناس صلاة الجمعة ، ثم خرج بعد الصلاة إلى القصر الذي كان فيه غردون ثم فوض إلى عبد الله التعايشي أمر حراسة الجبخان وانتدب عبد الله بن عبد الرحيم أومره بتعبئة الخرطوش وإعداد آلة الحرب وإصلاح آلة الحرب .

ولما كانت الخرطوم عاصمة إقليم السودان فسقوطها في قبضة المهدي أصبح السودان خاضعاً له فإلم يسقط فعلى وشك السقوط عن قريب وقد سقط بعد بلا مقاومة .

ذكرنا أن المهدي كان محسكراً في جهة الفتيح ليسكون بعيداً عن مرمى المقذوفات .

وفي أوائل جمادى الآخرة سنة ١٣٠٢ هجرية بعد فتح الخرطوم أمر ببناء بيت له في أم درمان يبعد عن النيل بألفي متر تقريباً وبني مسجداً نحو ستائة متر وضعت له فيه مقصورة من ألواح الزنك وكان منزله متصلاً بالمسجد ولذلك كان يصلى الأوقات في بيته والناس يأتون به وهم في المسجد وكان لا يصلى في المقصورة إلا الجمعة وكان جمهورى الصوت بالقراءة وكان يطيل القيام والركوع والسجود ويحهر بالبسملة في الصلاة ويقبض .

ذكر مرض المهدي ووفاته

ونبذة قليلة من تاريخ المؤاف

في ليلة الأربعاء لأربع ليال خلت من شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن سنة ١٣٠٢ هجرية أصيب المهدي بالحمى . وفي يوم الخميس اشتدت عليه حمىء إليه بأطباء مصريين فقرروا أنها من حمى التيفود وأن حالته خطيرة وعملوا له العلاج .

وفي صبيحة يوم الجمعة أمر الخليفة عبد الله التعايشى أن يخلفه في صلاة

الجمعة وكان قبل ذلك يخلف على حلوان أو أحمد الجعلى ، وفى يوم الأحد ثامن رمضان اشتد عليه المرض وكان يرفع صوته بقول الله عز وجل : (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) .

وفى يوم الإثنين تاسع رمضان سنة ١٣٠٢ ضحوة الساعة الرابعة فاضت روحه إلى رحمة ربها وكان محاطا بقرابته وخلفائه وكان المهدي قد جعل خليفته الخليفة عبد الله التعايشى فخرج الخليفة عبد الله على الناس بعد وفاة المهدي وقال لهم كما قال أبو بكر رضى الله عنه يوم توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كان يعبد المهدي فإن المهدي قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ، ثم حفروا له قبرا فى الغرفة التى توفى فيها .

وفى منتصف الساعة العاشرة صلى الخليفة عبد الله التعايشى بالناس صلاة الظهر ثم استدعى نحو عشرين رجلا من أقارب المهدي فدخل بهم فى الغرفة واصطف الناس خارج الغرفة فظلوا عليه يسمعون الناس التكبير ، وبعد أن وورى التراب خرج الخليفة عبد الله إلى الناس فرقى المنبر وخطب ثم بايعه الناس ثم كتب هو وأقارب المهدي مذكورا بوفاة المهدي وبيعة الخليفة عبد الله إلى جميع الجهات ، وفيه : أن المهدي استخلف عبد الله وأصى بطاعته .

وبعد : فهذا ما تيسر لى من تاريخ محمد أحمد المهدي بن عبد الله راجيا من نظر فيه أن ينظر إليه بعين الرضى والصواب والله الموفق للصواب .

ولما كان هذا التأليف عمله المؤلف فى التاريخ وذكر نبذة قليلة من تاريخه فهو محمد وملقب بالداه أحمد ولد المؤلف فى قطره شقيق وتربى

في كفالة والده أحمد رحمة الله واسعة ووالدته عائشة تغمدتها الله
برحمته الواسعة وكان أكبر همهما أن يربياه أحسن تربية وأن لا يشتغل
إلا بطلب العلم إلى أن يكون من أهله وبعد بلوغه بسنين قليلة اشتاق إلى
الحج وتيسر له ذلك فحج حجات وجاور في المدينة المنورة مرة كان فيها يقف
أمام الروضة وأمام أشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فيزور
ويدعو الله عز وجل بالعافية والستر في الدنيا والآخرة والمغفرة له ولوالديه
ولأنبائه وأزواجه وقرابته والتوفيق وحسن الختام .

اللهم اغفر لمؤلفه وارزقه سعادة الدارين وأظله تحت ظل عرشك يوم
لا ظل إلا ظله وحاسبه حساباً يسيراً واسقه من حوض نديك سيدنا محمد
صلى الله عليه وسلم واحشره تحت لوائه وارزقه جواره هو ووالديه وأزواجه
وذريته وقرابته في أعلى جنتك جنة الفردوس مع الذين أنعمت عليهم من
النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ؟

تم تأليفه يوم الجمعة الموافق ٨ من رمضان سنة ١٣٧٨ من هجرة أشرف
الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

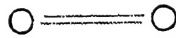
وتم طبعه للمرة الثانية في يوم السبت ٢٠ من جمادى الآخرة سنة ١٣٨٢ هـ
الموافق ١٧ من فبراير سنة ١٩٦٢ م

فهرس كتاب

تاريخ محمد أحمد المهدي

الموضوع	الصفحة
الترجمة	٣
ميلاد محمد أحمد المهدي وأخذه وصفته العلم والتصوف وتجواله مع مريديه في البلاد .	٤
أرل موقعة بين الحكومة والمهدي بجزيرة أبا وكان ذلك في أرائل شهر رمضان سنة ١٢٩٨ .	١١
تعين عبد القادر حلي باشا حاكما للسودان وعزل محمد رموف باشا من الحكمدارية وحمله يوسف باشا الشلالى .	١٤
ترتيب جيش المهدي .	١٨
زحف المهدي من جبل قدير إلى الأبيض واحتلاله له عنوة	٢١
تسليم دارفور	٢٤
ذكر واقعة هكس بعد احتلال الأبيض بالقرب منه .	٢٦
تضكير الحكومة بعد هذه الموقعة وما عمله المهدي	٣١
مفتور المهدي الذى بعثه إلى الشيخ طاهر وإلى الجهات الأخرى .	٣٢
حوادث شرق السودان .	٣٣
ترجمة الشيخ الطاهر الخديوي وعثمان دقنه وما عمله في شرق السودان وما أبداه من الشجاعة ومعرفة الحرب وما أتيح له من النصر .	٣٤
ذكر واقعة سبتك وهى أرل واقعة في السودان .	٣٧

الصفحة	الموضوع
٣٧	حملة محمود طاهر
٣٨	حملة بيكر
٤٠	واقعة الجنرال جراهم في التيب
٤١	محاصرة عثمان دقنة بسواكن
٤٢	محاولة جراهم الوصول إلى بربر
٤٢	ذكر منشور المهدي لعثمان دقنة والآنصار
٤٨	تولية غردرن حاكماً عاماً على الخرطوم وخطابه للمهدي قبل أن يصل إليها
٥٠	وصول غردرن إلى الخرطوم
٥٢	رد المهدي على غردرن بخطابين
٥٧	ذكر زحف المهدي من الأبيض إلى الدهر ومنه إلى الخرطوم
٦٠	ذكر المجاعة في الخرطوم
٦١	ذكر سقوط نقطة أم درمان
٦٣	ذكر سقوط الخرطوم وقتل غردرن
٦٦	ذكر مرض المهدي ووفاته ونبذة قليلة من تاريخ المؤلف



اطلبوا :

دعوة الإسلام

ديوان خطب منبرية حديثة

تأليف

الشيخ محمد مصطفى أبو العـلا

المدير العام للتعليم الابتدائي بالأزهر الشريف / سابقا

في جزآن

يطاب من مكتبة القاهرة بالأزهر بمصر

الفتح الرباني

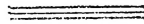
شرح نظم رسالة ابن أبي زيد القيرواني

الآيات المحكمات

في التوحيد والعبادات والمعاملات

مشروحة ومحققة

الثنى ٢٥



إضاءة الدجئة

في اعتقاد أهل السنة

للشيخ أحمد المقرئ المغربي

بشرح الشيخ محمد أحمد الداه

الثنى ١٠ قروش

كتاب الأعراب

عن
قواعد الأعراب

ديوان

منعش الأعراب

بلغه أهل السودان